من الساعة الخامسة والعشرين

إلى الأبديـة

تأليف

فيرجيــل جورجيــو

ترجمة

حليــم عبــد اللـــه

المقدمة :

تقرأ هذا الكتاب فتحتار في أمره، أهو قصة مأساوية أم هو كتاب في **اللاهوت والفلسفة الكنسية ؟؟..**

أهو سيرة ذاتية خاصة، أم تاريخ اجتماعي سياسي عام ؟؟..

في الواقع هذا الكتاب هو كل ذلك، يقص عليك مأساة **كاهن روماني**، هو **أب لستة أولاد**، عاش **لرعيته وشعبه** ولم يعش لنفسه ولذاته، لم يثنه فقر، ولا جوع ، ولا حفا ولا تعب، ولا عري، ولا ظلم، ولا اضطهاد عن القيام بواجبه الرعائي. كما يسرد سيرة المؤلف الذاتية وقد أثرت به حياة والده **قسطنطين** من وجهتي "**الدم والروح**" فتمسك بإيمان ذاك الكاهن القديس، واختار نفس الرسالة "**الكهنوت**" ليتقرب بها من الله.

وستجد في هذا الكتاب حلولاً لمسائل **لاهوتية وكنسية لوترجية** ذات شأن وأهمية مؤداة ببساطة متناهية ووضوح لا يُخفيه أي التباس، ولا يثيره أي تساؤل، وقد أودعه المؤلف في شيء من الزرافة والفكاهة والدعابة المستحبة امتزجت فيه **السيرة الذاتية بالسيرة الجماعية**، **سيرة الفرد بسيرة الجماعة الكاهن بالرعية**، **المسيحي بالكنيسة**، **التاريخ الخاص بالتاريخ العام**، فجاء الكتاب صورة عن الكنيسة المعذبة المضطهدة على الأرض، للمسيحي المضطهد من أجل إيمانه، ليس فقط في **رومانيا** بل في كل وطن، وفي كل بقعة من بقاع الأرض.

هكذا كانت الكنيسة على مدى العصور، معذبة، مضطهدة، اضطهدها شياطين الأرض: **ساسة**، **غزاة قواد**، **تجار**، **يهود**، **رومانيون نيرونيون** منهم ينتسبون إلى الشرق ومنهم إلى الغرب، إلى اليسار أو اليمين من الأزل إلى الأبد.

وانتصرت الكنيسة، وستنتصر دائماً لأن جذورها في السماء وفي عمق أعماق التاريخ، فلن ينال منها الاضطهاد والتنكيل، والتجويع، والتخويف، والحرق، والتدمير، والشنق، والصلب لأن الرب يسوع هو مؤسسها وحاميها ومعها إلى الأبد فأبواب الجحيم لن تقوى عليها، فإن أمات الغزاة والجلادون الجسد، فلن ينالوا أبداً من الروح شيئاً.

هكذا، يحمل إليك هذا الكتاب وجع الفرد والجماعة، المسيحي والمسيحيين، **الكاهن والرعية**، الإنسان والإنسانية وجع الذين ماتوا والذين يحيون في الحاضر، والذين سيولدون مستقبلاً في كل المساحات والاتجاهات المسطحة
التي تشير إليها إبرة البوصلة فترثي لحالهم وحالك حاملاً إليك فرحهم في الانتصار.

أنطوان داغر

فتحتُ عينيَّ على أيقونة

والدي، كان أول من انفتحت عليه عيناي في هذا العالم.

إني أشبّه الذاكرة بشريط سينمائي تُسجل عليه كلأ صور الحياة، من المهد إلى اللحد، والعين بكاميرا تلتقط بصورة تلقائية كل ما يظهر أمام عدستها، ولا تحتفظ إلا بالصور والمشاهد التي تروق لها، وما تبقى تطرحه مثل شريط معطل في حقل النسيان كما تُطرح المهملات.

فعلى شريط ذاكرتي صورة مكبّرة من فجر حياتي حفظتها ذاكرتي بورع وجمّلها الزمن من أن يمحوها، هي صورة **والدي**.

من المرجح أنني كنت في السرير آنذاك، وكان والدي منحنياً فوقي، فكنا نتبادل النظرات مندهشين، فخروجي الحديث من اللاوجود، كان يبرر رغبتي في الاستطلاع لأنني لم أكن قد رأيت شيئاً آخر من قبل غير والدي فعدسة عينيَّ كانت لا تزال بكراً، وكل شيء في الوجود كان جديداً بالنسبة لي، ورؤية شخصي الصغير الجديد كانت تبرر دهشة والدي أيضاً إذ أنه لم يكن قد أكمل العشرين من عمره بعد، ولم يكن قد اجتاز مرحلة المراهقة فجسمه كان لا يزال ينمو ويكبر، وعظامه تقوى، وكان متعجباً من كونه قد أصبح والداً، فكان ينظر إليَّ كأني قد سقطت عليه من السماء فجأة. فكانت دهشتنا متبادلة...

فأنا فخور جداً بأن تكون أولى الصور التي احتفظ بها من عالم الأرض هي وجه بشري، إذ أنني فيما كنت أنظر إلى **وجه إنسان، رأيت الله. ومن يرى الله يرى الكون بأكمله**، فالمسيح تجسد لكي يرينا وجه الله الإنساني، وقد قال ذلك بوضوح: "**مَن رآني فقد رأى الآب**" (يو 14 : 9)

فأفضل صورة لله هي الإنسان

وفخور كذلك لأن يكون أول ما رأيت على الأرض هو وجه والدي، فعما قريب تنطبق عيناي وتتوقفان عن تسجيل صور من الحياة، فالأموات لا يرون أشياء الأرض، لذلك تراني أستعد أتم الاستعداد لمغادرة الأرض، لقد عشت القسط الأكبر من سني حياتي، أنفقتها كما تنفق الأوراق النقدية، فما تبقّ لي منها ليس بشيْ تجاه ما أنفقت، تجاه ما عشت، وأمانة للحقيقة أقول إنني لم أرَ في حياتي قط حتى ولا في الحلم صورةً أجمل من تلك الصورة المرتسمة في ذاكرتي، وهي صورة والدي، فلا لوحات مشاهير الفنانين ولا روائع الطبيعة، ولا وجوه النسوة الجميلات المشرقة ولا جمال وجوه الأطفال السامي، تضاهي جمال أول وجه بشري رأيته: **وجه والدي**. والتوضيح واجب: وجه والدي لم يكن صورة مماثلة للصور الأخرى التي التقطتها ذاكرتي كما يفعل الشريط السينمائي، إنها كانت مغايرة جداً، لقد كانت **أيقونة** .

والأيقونة **Icon**، هي صورة، ولكنها ليست صورة أرضية بحتة، إنها سماوية وأرضية معاً، إنها مختلطة كما تدل على ذلك اللفظة اليونانية **Theandrique** المركبة من لفظة **Theos** التي تعني: الله، ومن لفظة **aner** التي تعني: إنسان.

والصورة الأرضية لا تصلح لأن تكون أيقونة، حتى ولو كانت صورة قديس. **والتشريع الأرثوذكسي للأيقونات يحرّم استخدام الصور تحريماً مطلقاً**. وإذا عُثر يوماً على رسم أحد القديسين فلا يصح أن يوضع محل أيقونة القديس الذي يكرمونه، لأن:

> **الرسم هو صورة الإنسان الأرضية فقط.**
> **أما الأيقونة فهي على العكس تماماً، فهي صورة الإنسان الكاملة الصافية في كل أبعاده الأرضية والسماوية.**

والصورة البشرية في الأيقونة، هي مجردة من شوائب المادة الثقيلة القابلة للفساد، والتي تتركب منها وهي في الحياة، وإنه لمن الإنصاف أن تجرّد من شوائب المادة، وأن تُرد إلى خطوطها الأصلية.

إن القديسين الذين نشاهدهم في الأيقونات هم بشر، ولكن بالرغم من أن أجسادهم ترابي فقد عاشوا كما يعيش الملائكة المجردون عن المادة، فالوجه البشري، والجسد، هما إذن في الأيقونة منقيان، مطهران، ومنزهان عن كل ما هو أرضي، وثقيل، وزائل، وهو يُظهر صورة الإنسان النموذجي، الأصلي، النقي. وكما يستحيل وجود ماء كامل النقاء في حالته الطبيعية كذلك أيضاً يستحيل على القديس وهو في الحياة الأرضية أن يكون كما تبرزه الأيقونة، فمهما بلغت درجة نقاء الماء يظل ملوثاً ببعض الأملاح، والغازات، والمواد الأخرى. إذ أن الماء النقي كيماوياً والمركب حسب الوصفة العلمية من الأوكسجين والهيدروجين لا يوجد إلا نظرياً، وإن وجد هذا الماء في الطبيعة فإنه لا يصلح للشرب، فالماء النقي الخالص كيماوياً لا يُشرب.

وهكذا الصورة البشرية في حياتها الأرضية، إنها ملوثة مثل الماء غير الصالح للشرب، إنها تحمل كل الشوائب التي دخلت فيما بعد على طبيعتها الأصلية، ولكن هذه الشوائب ليست من أصلها.

وفي الأيقونة الأرثوذكسية، تُرسم الصورة البشرية كما هي في الأصل، كما كانت في بدء الخليقة.

فكل أيقونة تمثل النموذج الأصلي للإنسان، فالجسم البشري منزه عن قوانين المادة والزمان والمكان. وصـــورة بشرية مجردة هكذا كما كانت في حالتها الأولى والأصلية **هي خالدة**.

إنها تعكس صورة الله الذي خُلقت على صورته ومثاله.

فالأيقونة إذن، لا تمثل حقيقة أرضية. فكل أيقونة هي نافذة على السماء. والصورة التي نراها فيها هي حقيقة علوية.

ففي الأيقونة نعرف الشخص، أو القديس، أو القديسة الذين عاشوا بيننا على الأرض، ولكننا لا نعرفهم حسب الجسد.

فمهمة رسام الأيقونات هي مهمة في غاية الصعوبة، لأنه من المستحيل أن يرسم الإنسان بيده اللحمية وبمواد معرضة للتلف –كالحبر والزيت والألوان– **حقائق خالدة لا توجد إلا في السماء**. ولتقريب الصورة ما أمكن من النموذج الإلهي والسماوي فإن الفنان يلجأ إلى وسيلة واحدة وهي:

استخدام الرموز في رسمها، أي **تجسيد حقيقة علوية سماوية بطريقة غير مباشرة. لأن هذه الحقيقة لا تُدرك مباشرة.**

وفي الكنيسة توجد **أيقونة واحدة وحيدة كاملة** لم تُصنع بأيد بشرية، إنها **وجه السيد المسيح** الذي انطبع بأعجوبـــة على المنديل وبدون تدخل بشري، إنها تُعرف باسم "**الوجه المقدس**" أو "**المنديل المقدس**".

ما عدا هذه الصورة التي لم تصنعها يد بشر، كل الأيقونات تلجأ إلى الرموز فتقلد الحقائق السماوية بواسطة المواد الأرضية.

وأجمل أيقونة في نظري، هي **وجه والدي**، كما طُبع في ذاكرتي لما فتحت عينيَّ لأول مرة في العالم، وأنا لا أزال في السرير، لقد تحققت فيما بعد أنها كانت مطابقة كل المطابقة لقوانين وقواعد علم الأيقونات البيزنطية الصارمة وانفتاح عينيَّ الأول على أيقونة بهذا الرونق، هو الذي حدد خط حياتي بدقة تامة.

الأيقونة، تشبه بوجه من الوجوه الملصقات الدعائية التي تعرضها مكاتب السفريات، والتي تقدم لنا صورة رائعة عن بلد تدعونا لزيارته، فكما أن كل ملصقة هي بطاقة دعوة للسفر إلى بلد الروائع .

هكذا الأيقونة هي أيضاً دعوة إلى فوق، إلى السماء. فالأيقونة كالملصقات السياحية ترينا صورة، صورة الحقائق السماوية.

هكذا، وأنا أفتح عينيَّ تلقيت دعوة إلى السماء. ومن الممكن أنـــه بسبب هذه الدعـــوة كان سفري إلـــى السمـــاء موضوع اهتمامي الأوحد، وثقة مني بأنني مدعو إلى خارج العالم الأرضي، قبلت بدون أي تفضيل

كل المراكز التي أُعطيتُها هنا على هذه الأرض، كنت أراها رديئة ومؤقتة كنت أعرف أن "**السماء عرشي والأرض موطئ قدمي**" (أعمال 7 : 49)

وإذا ما عرفنا جزءً صغيراً من الحقيقة السماوية من خلال زاوية من نافذة الأيقونة، نرى أن الأرض صغيرة فعلاً، وحقيرة. وندرك أن لأرض لا تصلح إلا موطئ قدم للوصول إلى السماء. فهذا كان قرار عملي، وهكذا عملت دائماً.

لقد عشت وأنا أغني :"التحق بموكب الملائكة...ومر الأبواب أن ترفع أعتابها وتُعليها". هكذا حصلت الأشياء فكما أن أشخاصاً يصبحون بحارة، لأنهم في صغرهم كانوا ينظرون إلى صور البحر، هكذا أنا تذوقت طعم السماء فأصبحت السماء هدف رحلتي بعد هذه الحياة، لأن صورة والدي التي فتحت عينيَّ عليها كانت مشهدا" عن الأعالي، مشهداً عن السماء، فقررت وجهة حياتي.

واختياري لهذا الاتجاه، أورثني عذابات كثيرة لن تنتهي إلا بالموت، ومعاصريَّ – رجال عصر العلم والمادة، الذين يقيسون كل شيء، ويدققون بكل شيء، ويضبطون كل شيء– حاولوا أن يضبطوا بطريقة علمية اتجاه حياتي وأفكاري وآرائي، وأعمالي كما يفعلون مع كل مواطن. وزيادة في التدقيق في اتجاهات المواطنين، إنهم يستخدمون البوصلة، ولكن المؤسف هو أن البوصلة لا تشير إلا إلى الاتجاهات على هذه الأرض. فلاحظ معاصريَّ، والبوصلة في يدهم أنني لا اتجه لا يميناً ولا يساراً، لا شرقاً ولا غرباً، لا إلى الأمام ولا إلى الوراء. فاستناداً إلى عملهم استنتجوا أن لا اتجاه لي. إنني مثل الريح أسير في كل الاتجاهات. وبدا لهم وضعي مشبوهاً وخطيراً، فأنزلوا بي عذابات فظيعة ورهيبة. إنني في الواقع أقر لهم بهذا الحق، لأنهم يريدون أن يعرفوا موقف كل فرد واتجاهه لكي يراقبوه فإذا كان على الخط الذي تنهجه السلطة فإنهم يساعدونه، وإلا يقتلونه، وبما أن بوصلتهم تعجز عن ضبط اتجاه خطواتي، فلا يمكنهم أن يساعدوني، فيزيد عدد مؤيديهم واحداً، ولا أن يقتلوني، فينقص عدد مناهضيهم واحداً، فكانت حياتي مبعث ضيق وإحراج لهم، لأنني كنت دائماً حاضراً، حيث لم يكونوا في انتظاري، فكانت البوصلة تعجز عن تحديد اتجاهي، ولكن رغم كل المضايقات التي سببتُها لمعاصريَّ، فإني مرتاح الضمير. فالخطأ يقع عليهم وحدهم، لماذا يستعملون أجهزة كالبوصلة مثلاً، لا تشير إلا إلى الجهات الأربع، ولا تشير إطلاقا" إلى السماء ؟؟..

فبما أن أجهزتهم لا تشير إلى السماء، استنتجوا أن لا وجود للسماء.

بئس الأمر أمرهم !.. فالسماء هي وجهتي، وزيادة في الطيبة فقد كان بإمكاني أن أعدل عن السماء إرضاءً لمعاصريَّ، ولكن الأمر غير وارد أبداً، بإمكاني أن أتنازل عن كل شيء، إلا عن السماء. فأنا مدعو إليها، إنها أول دعوة تلقيتها من خلال أيقونة والدي، لما فتحت عينيَّ لأول مرة. وهذه هي الدعوة الوحيدة التي أصرّ على تلبيتها مهما كلف الأمر.

نبذة تاريخية و جغرافية

ما الذي كان يميز والدي عن باقي الرجال حتى أجرؤ فأقول أنه أيقونة ؟؟..لا شيء...

فالمسيحيون لا يتميزون عن غير المسيحيين لا بالأوطان ولا باللغة، ولا بنمط حياة خاص، لأنهم لا يحتكرون مدناً ولا لغة. إنهم يسكنون في مدن إما متحضرة وإما متخلفة كما شاء حظهم أن يكونوا، إنهم يشابهون أهل بلادهم في المأكل والملبس وممارسة كل العادات والتقاليد، يعيشون حياة مدهشة يعتبرها الكل معجزة، **يعيشون في أوطانهم وكأنهم غرباء** يشاركون في كل شيء كمواطنين، ويعانون صعوبات مَن ليسوا من أبناء البلاد، كل أرض غريبة هي وطنهم، وكل وطن هو غريب عنهم...إنهم في الجسد ويعيشون وكأنهم ليسوا في الجسد، **يعيشون على الأرض، والسماء هي موطنهم**، يعيشون في العالم وكأنهم ليسوا في العالم. ووالدي كان مسيحياً. إذن، لم يكن ينتسب إلى الأرض إلا مؤقتاً، كما يقول **Diognete** في هذه الرسالة التي ترجع إلى القرن الثاني الميلادي.

كان والدي **كاهناً** في قرية ريفية تضم مائتي نسمة وكان هؤلاء المؤمنون يعيشون في بيوت من خشب صغيرة ومتفرقة تنتشر على جبل قاحل على مسافة ثلاثين كيلو متر تقع رعية والدي، هذه، في ضاحية

أوروبا شرقي **مولدافا** إلى المنحدر الشرقي لجبال **الكاربات**. إني لا أملُّ من وصف هذا المشهد في كل رواياتي، وأجدادي الذين كانوا يعيشون في منطقة **بيترودافا** هذه كانوا يسمون أنفسهم "**الخالدون**". لأنهم وإن كانوا قد عاشوا قبل المسيح بزمن بعيد فقد كانوا على يقين من أنهم لا يموتون. إذ أن الموت الجسدي بنظرهم هو انتقال من الأرض إلى السماء، فكانوا ينتظرون الموت بفارغ الصبر، لأن أجدادي الخالدين سكان بيترودافا كانوا يزدرون أمور الأرض والمادة، لأنها لا تدوم زائلة وقابلة للفساد.

أجدادي الخالدون الموقرون الذين كان اليونانيون والشعوب القديمة يسمونهم "**الخالدون**" لأنهم لم يعلقوا قلوبهم قط بأشياء أرضيـــة دنيويـــة، مثلهم مثل السياح الذين لا تتعلق قلوبهم بالأرض التي تدوسها أقدامهم لأنهم كانوا يعرفون أنهم سيوجدون غداً في بلد آخر، وقد حارب الخالدون **ثلاثة قرون** ضد الرومان الغزاة، ونحو السنة المائة هُزموا واستولت عليهم جحافل **الإمبراطورية الرومانية**، وكان من عادات الخالدين أن يفضلوا **الموت** دائماً على العبودية ولهذا السبب انتحروا قبل أن يقعوا في قبضة المنتصرين، انتحروا جميعاً، الشعب والملك، نحروا قلوبهم بحطام خناجرهم، ولما وصل الرومان المنتصرون لم يجدوا في وطن الخالدين إلا الشيـــوخ العجـــزة، والنســـاء الطاعنات بالسن، والأطفال مع أمهاتهم، ومع هذه الفئة من الشعب بدأ الرومان الاستعمار.

وكان الخالدون يملكون مناجم ذهب غنية، فلاستخراجه من مناجم جبال الكاربات أرسلت روما خلال قرنين رجالاً يؤمنون **بيسوع المسيح**، أرسلت **مسيحيي الإمبراطورية الرومانية**، فهذه كانت طريقة ذاك العصر في معاقبة المسيحيين، أن يرسلوهم إلى مناجم للأشغال الشاقة، وهكذا المحكومون بالأشغال الشاقة كانوا: **الأساقفة، والكهنة، والشهداء، والمتعرفون** الذين أتوا إلى بلادي مقيدين بالسلاسل، ومكويين بالحديد المحمى بالنار، حملوا **كلمة الإنجيل** معهم **وعمدوا** مَن كان على قيد الحياة من الخالدين مع أولادهم، وأنا فخور لأن يكون أجدادي قد تعمدوا على أيدي الأساقفة القديسين المحكومين بالأشغال الشاقة، إذ أن:

السلاسل لم تكن يوماً متعارضة مع الكهنوت، بل على العكس، فآثار الحديد المحمى على جبهة الكاهن هي علامة تتناسب مع خاتم الروح القدس.

فبفضل الكهنة المحكومين بالأشغال الشاقة –معاصري **القديس كليمنضوس الروماني**– تنصرت بلاد الخالدين نحو السنة المائة، وتعمد الخالدون على أيدي أفضل كهنة في الكنيسة، لأن روما لم ترسل إلى الأشغال الشاقة في المناجم الفاترين أو مَن هم دون الوسط، فمَن هم دون الوسط لم يُضطهدوا ولن يُضطهدوا، فالصاعقة لا تنقض إطلاقاً" على الأماكن المنخفضة بل على الكبيرة والعالية، الكبير وحده يتلقى الصاعقة على رأسه **فالقديسون المحكومون** بالأشغال الشاقة الذين بشروا أبناء وطني **بالمسيح** كانوا **نخبة كنيسة المسيح**، واحد من أقدم المصلوبين في العالم يرجع إلى القرن الثاني، قد وُجد في وطن أجدادي الخالدين في **Tomis** فصلبان ذاك العصر نادرة الوجود إذ أنه **لفرط حبهم للمخلص** كان يصعب على اخوتنا **القديسين** الذين عاشوا في القرون الأولى للمسيحية، أن يرسموا المصلوب، كان ذلك يفطر أكبادهم، لذلك كانوا يمتنعون عن نحت المصلوب.

إذا تحدثت هنا عن آبائي الخالدين فليس لأنهم أسلافي ولا للافتخار بهم، مع أني فخور بأصلي، وإنما لكي أوفر على البعض الوقوع في خطأ التفتيش عن وطني على الخريطة الجغرافية فقط.

طبعاً إن **رومانيا** بلادي الجميلة المحبوبة والتعيسة في آن واحد، تظهر على كل الخرائط الجغرافية، مثل كل بلد آخر في العالم، وتُذكر في كل دليل سياحي، إنها تبعد **ثلاثة آلاف** كيلومتر عن **باريس** شرقاً، توجد في جبال **الكاربات** شمالي **نهر الدانوب**، وتبرز على الخريطة بشكل دائري **كالقمر والشمس**، ولكن بما أن الخالدين كانوا وما زالوا يسكنونها فلا يصح التفتيش عنها على الخريطة الجغرافية فقط، إن جزءً منها فقط يوجد على مثل هذه الخرائط، لأن الخالدين الذين عاشوا قبل المسيحية لا يسلخون إلا قسطاً صغيراً من حياتهم في هذا الوطن الأرضي، فموطني الحقيقي هو شبيه **بالأيقونات**، كموطن أجدادي، إنه **إلهي وإنساني** قسم منه يوجد هنا في **الكاربات**، والقسم الآخر هو فوق في **السماء**.

فالوطن الحقيقي هو في السماء، كالأيقونة والكنيسة تماماً هنا نسخة عن صورة ما هو فوق.

فمَن أراد أن يستكشف وطني، **رومانيا**، وأن يفهم سكانه وأعمالهم، لا يكفيه أن يتزود بخريطة جغرافية فقط، وإنما عليه أن يتزود أيضاً **بمعرفة أمور السماء والأشياء العلوية**.

أبي .. الخادم في السماوات

لقد سبق أن قلت أن والدي كان كاهناً في قرية توازي مدينة باريس مساحةً ولا يقطنها أكثر من مائتي نسمة.

أدركت فيما بعد أن الأب الجليل، والدي، كان نحيلاً جداً، منتصب القامة فارعها مثل شجرة صنوبر فتية فكان أقرب إلى شاب مراهق، شمخ قبل الأوان منه إلى والد كان منظره يوحي إليَّ بأنه سريع العطب، لدرجة أنني كنت أتصور أن ريحاً أقوى من المعتاد بقليل كفيلة بأن تحمله وتنقله من الأرض إلى السماء، وكنت أتخيل ثنايا قمبازه تنفتح كأجنحة **السيرافيم** الكثيرة، وكنت دائم الخوف على فقده بهذه الطريقة، فعندئذ أصبح يتيم الأب.

شيئاً فشيئاً توضح لي لماذا كنت أُشبِّه والدي بأيقونة –أي بأحد المخلوقات السماوية– أكثر منه بأحد الأرضيين.

تفسير ذلك غاية في البساطة، فالكل يعرف أن الخدام الأمناء الأصليين الذين يخدمون في قصور الملوك ويقضون حياتهم في صحبة الأسياد العظام يتوصلون لأن يقلدوا أسيادهم.

فكل الخدام في القصور وفي بيوت الأمراء الكبيرة، يقلدون معلميهم في أصواتهم، وتعابيرهم، وحركاتهم وفي أداتهم، وكل خادم أمين يتوصل في النهاية وبدون فعل إرادة منه لأن يقلد سيده بصورة عفوية، يقلده في كل شيء.

كل خادم أمين يطابق بين شخصيته وشخصية معلمه لدرجة أنه يصبح ظله، يشابهه في كل شيء، ويتبعه حيث يمضي.

هذا ما حصل لوالدي المسكين الذي كان خادماً أميناً لله. **نظرته ملائكية، وصوته سماوي رقيق، ومشيته منزهة تشبه طيران الملائكة**. فكل هذه الأشياء تجعل منه خليقة سماوية أكثر منها أرضية، كلها من خصائص الله، سيده. لأن والدي كان يقضي يومه بصحبة معلمه، همه الوحيد كان خدمة معلمه، فلم يكن له مشاريع خاصة به، ولا آراء شخصية، ولا مؤسسات بإسمه، **فآراؤه وأفكاره كانت آراء الله وأفكاره**، ولم يعمل إلا ما يأمره به الله. وهذا أمر طبيعي، فكل خادم أمين لا يحتفظ بآراء خاصة. إنه يعمل فقط لمصلحة سيده.

ولما تعرفت على والدي، كان لا يزال في شرخ الشباب، فرغم حبه لسيده وتفانيه في سبيله، لم تكن حداثة عمره لتسمح له بأن يشابهه كل المشابهة، مثل الخدام الشيوخ ومع ذلك كان يطابق حياته على حياة سيده، كما لو كان في خدمته من سنوات طويلة. فهذا يعني أن والدي قد وُلد في خدمة الله، فجدي لأبي كان أيضاً خادماً لله، ووالده كذلك وكل أسلافه الذكور كانوا كهنة في خدمة الله، ومنذ أن تتصوروا لم يشذ واحد عن هذه الخدمة، ففي عائلتنا كنا دائماً كهنة أباً عن جد، مثل اللاويين اليهود، وكانوا كلهم كهنة رعايا في الريف، في قرى جبلية، على المنحدر الشرقي لجبال الكاربات.

وكان والدي يتصرف بعفوية كما يتصرفون في السماء فتصرفاته وحركاته كانت تصرفات وحركات العلويين لا السفليين، لأن المكان حيث كان والدي يخدم الله، هو السماء هو بيت الله. وكل أسلافه جيلاً بعد جيل خدموا سيدهم في السماء، وهناك فوق أكملوا مهمتهم وليس هنا على الأرض. إذ أن الخادم يخدم معلمه في بيته.

وبيت الله هو السماء المشيدة على الأرض، هو الكنيسة.

إن الكنيسة هي بالطبع بناء من حجر، أو الخشب، أو الرخام، نشاهدها في وسط القرى أو المدن. ولكنها ليست بناءً أرضياً، إنها تنوب عن السماء المشيدة على الأرض بواسطة **الرموز**، إذ أنه:

يستحيل تجسيد حقيقة سماوية بطريقة أخرى غير الرموز

فبناؤها بشكل سفينة شراعية، يدل بوضوح أنها من السماء وليست من الأرض، وأنها في الأرض **كالسفينة في الأوقيانوس، إنها تبحر، إنها حقيقة، ولكن من عالم آخر**، وبما أن والدي قد وُلد خادماً في السماء، وكل أجداده كانوا خداماً في السماء المشيدة على الأرض–**في الكنيسة**- فإنه من الطبيعي أن يكونوا قد نسوا شيئاً فشيئاً أساليب أهل الأرض، واعتنقوا أساليب أهل السماء وعاداتهم ولغتهم، فوالدي وأجداده كانوا دائماً في لباس الخدمة، وعاداتهم وأحاديثهم، وحركاتهم كانت عادات وكلمات وحركات الخدمة. فكانوا يتصرفون دائماً كما يتصرفون وهم في الهيكل في حضرة سيدهم، أي في **السماء**، وكان والدي لا يقلد–كما يليق بكل إنسان– معلمه فحسب، وإنما يقلد أيضاً **رؤساء الملائكة، والملائكة، والشيروبيم، والسيرافيم والقديسين والشهداء، والمعترفين، والنساك وآباء الكنيسة، والأنبياء رفاقه في الخدمة**. إنه كان دائما" في صحبتهم، إذ أنه:

عندما يحتفل الكاهن بالذبيحة، تتم الذبيحة تباعاً في السماء وعلى الأرض.
"لأن الكنيسة واحدة هناك في السماء، وهنا على الأرض.. والذبيحة تتم فوق، في السماء، وهنا، في نفس الوقت.. بفارق وحيد، إنه فوق تزول الرموز والحجب، وأما هنا على الأرض فالحاجة إليها قائمة لأننا لا نزال نئن تحت عبء الجسد المعرّض للفناء".

وعندما يحتفل الكاهن بالذبيحة، تصحبه الآلهة والسلطات السماوية.

"وضع الله سر الكهنوت على الأرض لكي ينوب عنه، وهكذا يظل الله منظوراً، ولا تخفى أسراره على من يبصرون بعيونهم".

والقوات السماوية تواكب الكاهن أثناء الذبيحة الإلهية وتساعده في إتمام الأسرار المقدسة، فساعة التطواف بالإنجيل، أثناء الذبيحة الإلهية يصلي الكاهن سراً ويقول:

"أيها الرب إلهنا، يا من أقمت في السماوات طغمات وأجناد ملائكة ورؤساء ملائكة لخدمة مجدك، اجعل دخولنا مقروناً بدخول ملائكة قديسين يشاركوننا في الخدمة ويمجدون معنا صلاحك".

وفي مكان آخر يرتل الكاهن والمؤمنون سوية مع الملائكة الذين يواكبونهم بصورة غير منظورة، وكان والدي الفتى النحيل، قد اقتبس كل التقاليد المقدسة في خدمة الله سيده بصحبة الملائكة، ورؤساء الملائكة والأنبياء والقديسين. وهذا ما يحصل لكل الخدام.

وهذا ما يشرحه كل علماء الاجتماع المعاصرون، في أبحاثهم العلمية، عن ردود الفعل عند الخدام في تقليد أسيادهم.

وبعد قرون طويلة من الخدمة في مساكن الله السماوية بصحبة الكائنات الإلهية، توصل آبائي لأن يأخذوا ليس فقط حركات سيدهم الإلهية وأساليبه، وعاداته، ومن يصحبهم في الخدمة من الكائنات السماوية، وإنما أيضاً تقاسيم وجه معلمهم وسيدهم. **وهكذا كان والدي يشبه أيقونة، وليس كائناً أرضياً.**

خفة الملائكة

في طفولتي، كنت دائم الخوف ألا يكون لوالدي جسد من لحم وعظم مثل باقي البشر، ولم تسنح لي الفرصة لأبدد مخاوفي لأني لم أرَ والدي مرة واحدة بدون قمباز.

فأحياناً لما كانت تسنح لي الفرصة كنت ألتصق به تدفعني إلى ذلك مخاوفي وشكوكي، فأجسه من فوق قمبازه لأتأكد ما إذا كان يملك لحماً وعظاماً وعضلات كباقي البشر ولكنني لم أفلح مرة على الإطلاق، وبينما أنا أجسه كنت ألمس تحت قمبازه خيال جسد، كأنه لا يملك جسداً إذ أن شخصه المادي كان يحوي قليلاً جداً من المواد الثقيلة. لقد كان بالأصح خطاً نحيلاً وطويلاً ينتصب على الأرض حركاته كانت صُعدية مثل أبراج الكنائس الغوطية، التي تظهر من بعيد وكأنها خطوط ريشة رفيعة رُسمت في الفضاء، وقوامه المنتصب صُعداً كان أيضاً مثل اللهب والألسنة النارية التي ترتفع من الأتون عمودياً لتضيع في الفضاء، وعندما كان يتوجه إلى الكنيسة تعباً كان جسمه يتمايل مثل شعلة تحاول الإفلات من الأرض لتتهادى في الفضاء، فبسبب ذلك كنت دائم الخوف والقلق من أن أصبح يتيماً وأفقد والدي كما يفقد الولد طيارة من ورق.

كنت على يقين بأن هذه الفاجعة ستحل بي يوماً، وأن والدي سينعتق من الأرض منطلقاً نحو الأعالي، ضائعاً مثل الشعلة بين الغيوم البيضاء. وقد قضيت طفولتي في الخوف من هذا الأمر المحتوم، لأنني كنت متأكداً من أن الشعلة لا تُضبط ولا يُحجر عليها، فإنها لا تُمتلك، ووالدي كان شعلة.

مشية والدي كانت هادئة، بخلاف التي كانت لأبناء قريتنا الجبليين ذوو الأجسام الضخمة، الأقوياء والأشداء كالصخور فوقع خطواتهم يرن مثل حوافر الخيل.

ولئن كان والدي من لحم وعظم، ولم أتوصل إلى التأكد من ذلك، فإنه كان مكوناً خاصة من روح والروح كالملائكة لا تخضع للجاذبية، فبسبب الانعتاق من هذه الجاذبية الملائكية كان ذهابه وإيابه يولد صوتاً ناعماً كأنه حفيف أجنحة حريرية، وأتصور أن هدوء مشيته وسكونها ليسا بفضل خفته الملائكية فقط وإنما أيضاً بفضل تمرسه على الخدمة في بيت سيده، في السماء المشيدة على الأرض إذ أنه في الكنيسة يمشي على أخمص قدميه، وبدون ضجة لكي يكون في تناغم مع الملائكة الذين يقومون بالخدمة معه.

كنت فخوراً جداً بوالدي، وفي عالم اليوم بدعة عامة أشجبها وأدينها، وتقضي هذه البدعة بألا نفخر بالجمال وبالذكاء النادر، وبالمعرفة الخارقة فلم يكن في القديم كذلك. فرجال الدين يمجدون الله كلما رأوا امرأة جميلة، أو رجلاً موهوباً أو بطلاً خارقاً، أو عالماً نابغاً، إنهم يقولون ما يقوله اليهود في أيامنا هذه:

> **"لك المجد أيها السيد الأزلي وسلطان العالمين الذي أعطيت إلى كائن مخلوق، قسطاً من حكمتك، أو من بهائك، أو من ذكائك أو من علمك".**

وأشكر الله أيضاً، بحرارة كل مساء قبل أن آوي إلى فراشي، لأنه مَنَّ عليَّ بوالد كأنه خليقة ملائكية، أو كأنه أيقونة، قد مَنَّ عليَّ بوالد خادماً أميناً لله، حتى أنه كان على صورته وعلى صورة ملائكته... غير أن الله قد خيّب أملي في زمن افتخاري بوالدين، لقد صدمني صدمة عنيفة. ولو أنه يوجد أجهزة تفحص جراح النفس كما تفحص جراح الرئتين بواسطة الأشعة، لكانت تظهر في نفسي اليوم آثار الجراح الكبيرة التي خلفها في نفسي الفتية، والدي الملائكي لما كنت فخوراً به ...

والدي الذي أتقاسمه مع كل الناس

حدث ذلك يوم أحد

> **وكل أحد عندنا هو فصح، إنه يوم القيامة**

فالأحد لا يشبه أي يوم آخر، كما أن الفصح لا يشبه الأعياد الأخرى، مهما كانت كبيرة، وكما أن القمر لا يشبه أية واحدة من ملايين النجوم التي تحيط به.

وبسبب هذه الأهمية التي نوليها اهتماماً كبيراً ليوم الأحد أسابيعنا تزيد أسابيع الآخرين بيوم واحد، فنحن نعرف أن الله خلق العالم في ستة أيام، وأن اليوم السابع كان سبتاً ولكن بعد هذه الأيام السبعة يأتي الأحد. إنه اليوم الثامن **ويوم الأحد جدّد المسيح خلق العالم بقيامته**، وبسبب هذا التجديد فإن أهمية يوم الأحد تفوق أهمية كل الأيام السبعة. وإذ كنا نعتبر أن الأحد هو اليوم الثامن فذلك ليس حبا" بعلم اللاهوت، فآباء الكنيسة ومعلميها كانوا يعدونه مثلنا، واليوم الثامن هو تذكار القديسين المحكومين بالأشغال الشاقة، الذين أُرسلوا في القرون الثلاثة الأوَل إلى مناجم الذهب في بلادي فجاؤوا حاملين لنا الإنجيل والعماد.

كان ذلك نهار الأحد، بعد القداس الإلهي، وأنا أنظر إلى أبناء قريتي يخرجون من الكنيسة، وكان والدي واقفاً على درج الكنيسة يودع كل مؤمن بمفرده، وأبناء القرية حاضرون جميعاً لأنهم لا يتغيبون إطلاقاً عن حضور الذبيحة الإلهية يوم الأحد، وكانوا كلهم الشيوخ الجبليون بلحاهم البيضاء كأنهم بطاركة العهد القديم، والنساء، والرجال، والأطفال بثياب الأحد القطنية أو الصوفية البيضاء كالحليب والثلج، واللون الأبيض هو اللون الوطني في **بتروفا**، الذكور والإناث من كل الأعمار كلهم بثياب بيضاء، ولكن نقاوة الثياب البيضاء لم

تكن تضاهي صفاء الوجوه والعيون. عند خروجهم من القداس الإلهي يبدون متجلين متجردين عن المشاغل الدنيوية ومقدَّسين، وحتى أكثر من مقدَّسين إنهم مؤلهين.

كنت أعرف لماذا كانت وجوههم جميلة ونظراتهم مشعة، فالنسوة القبيحات كن يبدين جميلات، والحطابون الصلاب البنية كأنهم يحملون على جباههم هالات ملائكية، والأولاد كانوا كالملائكة طاهرين، فكل نساء قريتي ورجالها عند خروجهم من القداس الإلهي كانوا يحملون الله **Theophores** لأنهم كلهم قد تناولوا **القربان المقدس، فدم الله كان يجري في عروقهم ، كانوا أبنـــاء الله، ومؤلهين**. إنهم بالواقع غلاظ الأجسام، بؤساء وفقراء، وهم يعرفون أنفسهم هكذا، لذلك يرددون قبل المناولة الصلاة التالية:

"إلهي، أنا لست مستحقاً أن تدخل تحت سقف بيت نفسي القذر، ولكن كما تنازلت واسترحت في مذود وفي معارة للبهائم، وفي بيت سمعان الأبرص، تكرّم عليَّ أيضاً وادخل مذود نفسي وجسدي الدنسين".

وبعد المناولة كان **الله يسكن** تحت "**سقف كل نفس**" من أبناء بلدي، فكانوا يخرجون من الكنيسة **حاملين الله في قلوبهم**، وكانوا يمشون باحتراس كمن يمشي وهو يحمل شيئاً لا يُثمن، كانوا يحملون الله، وإذا ما حمل الإنسان مشعلاً أو شعلة فإنه ينعكس نورها على وجهه فيضيء، **وإذا ما حمل الإنسان الله نور الأنوار كلها، فإنه يُضيء من الداخل بصورة أن جسده وكل كيانه يتغير ويصبح جميلاً**. وكلنا يعرف كيف أن الممثلين يتغيرون على المسرح، تحت الأضواء الكاشفة، فالنور القوي الساطع يبدل هيئة الأشخاص لدرجة أن الأب يكاد لا يعرف ابنه أو ابنته وهكذا أنا كدت لا أعرف أبناء بلدتي الخارجين من الكنيسة حاملين الله "**تحت سقف نفوسهم**" كدت لا أعرفهم لروعتهم وجمالهم، لم أرَ بشرةً أو جسداً قط أكثر جمالاً من وجوه حمَلَة الله، حملة نور الله المبهر، لا وزن له ولا حجم، **فكان جسدهم مؤلهاً**، كان جسدهم متغيراً من **روح الله**. كنت أنظر إلى أرتال القرويين حملة الله، كما يُنظر إلى عرض مسرحي، وكنت مأخوذ اللب مخطوفاً، شأني في ذلك شأن كل متفرج يحضر عرضاً مسرحياً رائعاً. وكل الفلاحين الذين كانوا يشعون نوراً كالماس، كانوا يدنون من والدي، يتوقفون برهة بقربه، وينحنون أمامه كما لو أنهم أمام أيقونة. وكان يبدو لي ذلك طبيعياً، لأن والدي كان حقاً أيقونة، ثم كانوا يفتحون يديهم الاثنتين فيعطيهم والدي يمناه فيرفعونها إلى شفاههم بحركة تقوية، كما لو كانوا يأخذون ذخيرة مقدسة، ويقبلونها كما يقبلون الخبز المكرس قبل أن يأكلوه، وبينما كل مؤمن يقبّل يد والدي اليمنى كان يقول له:

- باركني يا أبتِ..

وكان والدي يجيبه: - ليباركك الله يابني..

لم أكن أعرف ذلك من قبل أن كل الناس يدعون والدي "**أبونا**" !!..

ووالدي الوقور الذي أعبده ينادي كل أبناء القرية "**يا ابني**" !!..

استولت عليَّ الدهشة، إن ذلك لا يُصدق، في بادئ الأمر لم أصدق هذه الخرافة، وعللتُ الأمر لنفسي قائلاً إنني لم أسمع بوضوح تلك كانت ردة فعلي الأولى، لأنني وإن كنت لا أزال صغيراً، كنت أعرف أن الاحتراس من الحواس ضروري. فالأذن تخدع، والعين تضلل، فدنوت من والدي حتى كدت ألتصق بركبتيه، وسرعان ما تأكدت من صحة ما سمعت، كل أبناء القرية ينادون والدي أنا، "**أبونا**". ووالدي الجليل الوقور يناديهم "**يا ابني**". لم يعد من مجال للشك. أطبقت عينيَّ حتى لا أرى هذا المشهد المشين، وانفجرت بالبكاء، وهربت إلى أبعـــد ما أستطيـــع حتى لا أرى ولا أسمع. إن شخصي الصغير الضعيف لم يحتمل مثل هذا الظلم، ومنذ ذلك اليوم بدأت أرقب أبناء الجيران بدقة، وكل مرة أنظر إليهم كنت أنفجر بالبكاء، لأن لكل واحد منهم أب، له وحده. بينما أنا، لي أب أتقاسمه مع كل أبناء القرية، ولا أحد في العالم يستطيع أن يتصور الألم الذي يحزُّ في نفس ولد صغير عندما يكتشف أن والده المعبود، هو أب أيضاً لكل الناس **كان ذلك أسوأ بكثير من أن أكون بدون أب إطلاقاً**...

خليط من دموع ولاهوت

في ذلك اليوم رفضت أن أتناول طعام الغداء، واختبأت وبكيت شقائي، فجاء والدي يعزيني، فسألني:

- لماذا تبكي ؟؟..
فقلت له: لكل طفل في العالم أبوه، إلا أنا!!..
فقال لي: وأنت أيضا" لك أب، وأبوك هو **أنـــا** ..
فقلت له: نعم، أنت أبي، هذا صحيح.. ولكن أنت لست لي وحدي.. أنت أب لكل الناس.. أيمكنك أن تنكر ذلك؟؟..وتابعت البكاء..وقلت له:
"أنت أب لمن هم أكبر منك سناً.. وأنا سمعتهم ورأيتهم أنت أب للشيوخ.. وأنت تدعوهم "**أبناءك**" أنت أب لكل الناس، أب لكائن مَن كان حتى للأشرار والسفلة".

كانت مصيبتي تعيقني في الكلام، فتضيّق عليَّ صدري وكان لها مبرر فأنا أحب والدي، وإذا ما أحب إنسان شيئاً يريد أن يستأثر به لنفسه، إذا أحب حقلاً أو بستاناً أو حيواناً أو شيئاً ما يريد أن يمتلكه لنفسه كاملاً. إن هذه الرغبة في الامتلاك والاستئثار هي من سُنّة الطبيعة، فمن يحب يدفع أغلى الأثمان وأكبر التضحيات للحصول على ما يحب، إذا أحب امرأة فإنه يتزوجها فتصبح امرأته، امرأته وحده، وإلى الأبد. وإذا ما اشتريت بيتاً يصبح بيتي، وهكذا هي الطبيعة البشرية. فالملكية الجماعية وإن كانت نظرياً أكثر إنصافاً وأقرب إلى المنطق من الملكية الفرديـــة فإنها لم تنجح في التوافق والانصهار مع الطبيعة البشرية لقد حاولت الكنيسة المسيحية أن تطبّق الشيوعية والملكية الجماعية بإلغاء الملكية الفردية، ففشلت كما فشلت كل المحاولات من هذا النوع فنتيجة هذه الاختبارات هي إشقاء الذين يُجبرون على الخضوع لها، وقتلهم. فعدلت الكنيسة المسيحية نهائياً عن هذه الفكرة الطوباوية. عدلت عن تحقيق الشيوعية على الأرض، عدلت عنها متأسفة مكرهة وهي تعلن: أن الملكية الفردية هي مؤسسة ضرورية على الأقل في عالمنا الخاطئ.. ويجب أن نتغاضى عن هذا الوضع كأنه تنازل في سبيل الضعف البشري. ولا يصح أن نصفق له ونهلل كأنه هو المبتغى بحد ذاته . فالمثـــال الأعلـــى – لو أن الطبيعة البشرية استطاعت أن ترتفع إلى مستواه – هو **الشيوعية**. أن يتمتع كل الناس بكل ما في الكون.

ولكن إذا ما أحب الإنسان شيئاً، يصعب عليه أن يتخلى عنه ليضعه في متناول الجماعة.

فقلت لوالدي : أنا أحبك حباً جماً.. ولكني اكتشفت منذ قليل أنك أب لكل أبناء القرية.

مسحت دموعي، ولكن دموعاً أخرى سالت وراءها، فقلت له: "قل لي، لماذا أنت أب لكل الناس؟..

كم كنت أتمنى لو يكون لي أب لوحدي!.. مثل باقي الأولاد، لماذا أنت لست لي وحدي؟؟.."
فأجاب والدي: "**أنا أب للجميع لأنني كاهن**".

كان والدي يرثي لحالي، ولكن لم يكن بوسعه أن يعمل شيئاً فصرخت قائلاً: "**أب للجميع**!.."
كيف يكون ذلك؟؟..
أأنت أيضاً أب للذين يقطنون خارج بلدتنا؟؟.."

سألت هذا السؤال لأنني لم أكن قد سمعت أحداً بعد يناديه "**أبتِ**"، إلا أبناء بلدتنا. فأجاب:

"نعم !.. أنا أب للذين يسكنون بلدتنا.. وأب للذين يسكنون القرى والمدن في الطرف الثاني من العالم أنا أب للذين لم أرهم.. وأكثر من ذلك أنا أب للذين ماتوا ودفنوا منذ أجيال وأجيال".

كانت دموعي تنهمر على وجنتي، دموع حارة كأنها المعدن المذاب، ولهول ما سمعت، كدت أعجز عن الجواب.

- "**أنت أب الأموات** ؟؟.. كل الأموات ؟؟.."

أجاب والدي بالإيجاب، فكان ذلك منتهى شقائي..

"أنا أب الأحياء والأموات، وأنا أيضاً أب للذين سيولدون غداً، وبعد قرن من الزمن، أو بعد ألف قرن حتى انتهاء العالم".

كان وقع هذا التصريح فادحاً عليَّ، حتى أنني هممت بأن أترك والدي إنني كنت أشابه أجدادي الخالدين الذين لم يقبلوا الأشياء إلا تامة، ولم يستوعبوا الدقائق، والتسويات والمساومات، والصفقات. لقد أعطاني الله أباً يخصني أنا شخصياً، كما أن جسدكم يخصكم أنتم شخصياً، وكنت أفضل أن أهجره، إذا لم يكن باستطاعتي أن أمتلكه لنفسي وحدي، تماماً كما فعل "**الخالدون**" الذين فضلوا الموت على الحياة أمام الذين انتصروا عليهم، لم تكن قامتي تصل إلى مستوى ركبة والدي، وغنما كنت أحبه وأرفض أن يشاركني به الآخرون.

فقلت لوالدي: "بما أن لك هذا العدد من الأبناء الأحياء والأموات، والذين سيولدون، فأنا أتركك.. فأنت لست بحاجة لي، أنا لست إلا أبناً تعيساً يضاف إلى الملايين من أبنائك الذين تناديهم بكل رفق وحنان: "**يابني**".

ولكن الشجاعة والقوة كانتا تنقصاني لأرحل عنه، فتسمرت صغيراً أمام والدي أجهش بالبكاء المر..

ثم سألته من جديد: "ولِمَ الكاهن هو أب لهذا العدد من الناس ؟؟..".

كان والدي صامتاً، حزيناً مثلي، ومكدراً. فالأسئلة التي وجهتها إليه لم تخطر مرة بباله، مع أن والده كان كاهناً أيضاً، إنها أسئلة جديدة لم يتوقعها، ولم يكن يتوقع، لا دموعي ولا غيرتي.. لقد كنت طفلاً شاعراً.. وكان قدري أنني كنت أسبر غور الأشياء، كما يرى الآخرون بواسطة أشعة "**إكس**". فالشاعر إنسان كأنه لا يعيش إلا ليرفع حجب الاصطلاحات والأعراف، والألفاظ، فيرى ما تحت الحجب، ويُظهره للناس إنه يمزق اللصائق ليرى ما تحتها بينما يكتفي الآخرون بقراءة اللصائق.

فضلاً عن ذلك، كانت دموعي وآلامي تحرج والدي، لأنه كان لا يزال فتياً. كان قد تخرج حديثاً من المعهد الاكليريكي. وأنا كنت ابنه البكر. فكان يتمنى أن يعزيني كما يُعزى الصغار عادة، ولكنه كان يعجز أن يغش ويكذب لم يكن بمستطاعه أن يجيب باستخفاف، فالمسيحي هو قبل كل شيء إنسان جدي. لا يحمل الأمور محمل الهزل، كل أعماله جدية، حتى ولو كانت جواباً لطفل يبكي، لأن نتائج أعمال المسيحي لا تقتصر على هذه الأرض، وإنما تتعداها إلى فوق أيضاً، وإلى الأبد. فالرجل المتدين يجهل الرياء تماماً. فبالرياء والروح الشرير يستطيع الإنسان أن يخفي الحقيقة عن الجيران وعن قضاة الأرض، وينتظر أن يلف النسيان كل شيء. أما بالنسبة للمسيحي فالأمر يختلف كل الاختلاف، فمجرد وجود الرياء هو أمر غير معقول بالنسبة له، لأن المسيحي يعرف أن عين الله لا تُخدع، وذاكرته لا تنسى، ولا يخفى عليه مخبأ. لذلك لم يكن بإمكان والدي أن يجيبني إلا بجدية، ويجب أن يكون جوابه صحيحاً، ومقبولاً لدى الله أيضاً، حتى وإن كان يتوجه إلى طفل صغير. وأنا كنت أبكي لأن ذلك كان بكر مصائبي، فكانت دموعي تختلط بعلم اللاهوت بكر آلامي على الأرض ...

الغزل اللاهوتي الكبير

منذ ذلك اليوم أصبحت مناقشاتي مع والدي لاهوتية بحتة لأن غمّي الأكبر هو كون والدي للجميع، في حين كنت أعرف أنني ابنه الوحيد، ولا يحق لغيري أن يدعوه "**أبي**" والغبطة التي يوفرها نداء والدي: "**يا ابني**" كانت محفوظة لي وحدي، بيد أن كل الناس كانوا ينادونه "**يا أبتِ**" فكنت أقول في نفسي، لو كان والدي يمارس مهنة مثل باقي الناس لما كنت ابتليت بهذه الآلام الشديدة، ولكنت نعمت بوالد لي وحدي. كنت أدرك ذلك، وكنت أتألم من كوني ابناً لكاهن ولكن رغم ذلك لم أطلب مرة أن يعمل والدي شيئاً آخر غير رسالته، أو أم يمارس مهنة أخرى غير الخدمة في بيت الله في السماء.

فكنت أقول له: "إن نشاطك ككاهن هو في إقامة الذبيحة الإلهية، وعماد الأطفال، واعتراف الرجال والنساء واعطائهم القربان المقدس، واستنزال بركات الله على أعمالهم وعلى أفراحهم وأحزانهم... تدفن الموتى، وتصلي من أجل الأحياء ، وتبارك زواج الشباب... هذا هو نشاط الكاهن، فهل من الضروري فوق هذا كله أن تكون أباً للجميع وأن تدعوهم أبناءك وبناتك، في حين أنهم غرباء وليسوا أبناءك كما أنا ابنك ؟؟..

"فيجيب :

"الكاهن هو أب للبشر على الأرض، كما أن الله هو أبوهم في السماء، والكاهن مثل الله، كل نشاط يقوم به هو نشاط أب".

ما كنت أفهم .. لقد كنت صغيراً، إذ كنت لم أتجاوز السابعة من عمري بعد، سنواتي كانت برقة صفحتين من كتاب الأبجدية، ويجب أن أقرَّ بأن تلك الأمور لم تكن سهلة الفهم بالنسبة لي، والحقيقة هي أن:

حياة المسيحي لا تبدأ بولادته، وإنما منذ بدء العالم

فكما أنه لا يوجد في الطبيعة ذرات منفصلة، كذلك لا يوجد مسيحيون منعزلون ومستقلون بذاتهم، فحياة المسيحي تبدأ مع ولادة أول إنسان فـــي العالم، وتاريخ العالم يؤلف وحدة متكاملة متماسكة لا تنفصل عن حياة كل فرد، وكل مسيحي.

وحياة المسيحي لا تنحصر بموضع واحد، أو بزمان معين.

فكتابة سيرة إنسان –حتى وإن كان صغيرا" مثلي في ذلك الوقت– تقتضي أولاً، إلغاء المكان والزمان الفاصلين إذ أن كل إنسان هو معاصـــر للإنسان الأول، ولكل إنسان، في كل الأزمنة، وفي كل الأمكنة، فليس من مسيحي قائم بذاته في العالم، وما من مسيحي عاش، أو يعيش، أو سيعيـــش منفصلاً عن الآخرين في عصر واحد، أو في زمن واحد أو في مكان واحد.

فالمسيحي يعيش في كل الأزمنة معاً، حاضرة، وماضية، ومستقبلة، وفي كل مكان يوجد فيه بشر، وتاريخ المسيحي هو تاريخ العالم بأكمله، في أيام الخلق السبعة، وفي اليوم الثامن، يوم الخليقة الجديدة التي حققتها القيامة.

تجهّم وجهي وأنا أصغي إلى والدي وهو يقول هذه الأقوال.

فقلت له: "كنت أجهل أنني قديم إلى هذا الحد".

ومنذ ذلك اليوم فهمت أن كل الناس معاصرون، وأن العمر هو قضية بدنية مادية، لا علاقة لها بالإنسان بحد ذاته، فأنا إذن خلقت مع الإنسان الأول، وحياته هي حياتي وعندما أصغي إلى قصة الخلق، أصغي إلى قصة حياتي.

فقال لي والدي وهو يحدق بي:

"لقد صُمم الإنسان بشكل لأن يصبح إلهاً"

الآن أعرف أن هذه الدعوة – أن أصبح إلهاً– موجهة لي أنا أيضاً، لأن سيرة الإنسان الأول هي سيرتي، لقد أفرحتني المفاجأة، إنه لمفرح أن يعرف الإنسان أنه مدعـــو لأن يكون قائداً، أو وزيراً، أو ملكاً.. "فكم بالحري أن يعرف أنه مدعو لأن يصبح إلهاً ؟؟.. إنها لدعوة سامية جداً.

"فبعد أن أكمل الله خلق الإنسان– الذي كان جديدا" كل الجدة وفائق الجمال– قال له الله: "**أيها الإنسان، إنك تكون سيد الأرض ورئيس كل المخلوقات في الكون، إنك تكون نظيري أنا إلهك، ودلالة على ذلك أعطيك الميزة الإلهية بالذات: الحرية".**

"لقد أفهم الله الإنسان بأنه هو الخليقة الحرة الوحيدة في الكون، الحيوانات، والنبات، والكواكب والشمس، والقمر، والمعادن، وسائر المخلوقات الجامدة والحية ، كلها مقيدة بقوانين آلية، وغرائز وشروط.

الإنسان وحده حر مثل الله. ورسالة الإنسان هي أن يرث ملكوت أبيه وأن يشارك في كل أسرار الألوهية".

علتني حمرة الغبطة حتى أذني، فبتُ أعرف ألقاب شرفي وحقوقي في الوراثة: "أنا ابن الله، ومساو له وأنا فخور باخوتي البشر، أنا مخلوق على صورة الله، أنا وارث ملكوت الله، وأنا حر مثل الله. وأنا مرتبط بمرتبتي الإنسانية لدرجة، إنني نسيت الألم الكبير الذي أوصلني إلى هذا الكشف: **ألم مقاسمة الناس والدي، لأنه كان كاهناً...**

القميص الجلدي.. هو لبس قصاصنا

قال لي والدي أن الإنسان لم يكمل رسالته، لم يحسن الانتظار فيتحد بالله بعد أن تكون الخليقة قد تألّهت كلها، فكدت أبكي.

بالواقع إنني كنت على صواب، إن سقطة الإنسان الأول كانت سقطتي أنا أيضاً، فتحسرت لأن الله لم يعمل شيئاً لتفادي هذه السقطة، أن يحد من حرية الإنسان قليلاً، مثلاً ولكن حرية محدودة ليست بحرية والإنسان كان يتمتع **بالحرية الأصلية، الحرية الإلهية التي بدون قيود**، حتى الله ذاته لم يكن بوسعه أن يدخل بيت الإنسان، إذا لم يفتح الإنسان الباب لاستقباله، كما قيل: "**هاأنذا واقف على الباب أقرعه فإن سمع أحد صوتي وفتح الباب دخلت إليه**" (رؤيا 3 : 20) .

كان الانسان رفيع الشأن لدرجة أن الله نفسه لم يقبل أن يوقفه عن عمل يريده وآباء الكنيسة يجزمون في ذلك قائلين: " **حتى الروح القدس لا يستطيع أن يخلق إرادة تعانده.. الروح القدس لا يحدث أي فعل في إرادة الانسان**".

فعل الإنسان الشر لأنه كان حراً، إذ لا شر بدون الحرية فالشر بدون الحرية ليس إلا إكراهاً، وعنفاً خارجياً، إنه تسلط من الخارج، ولكن إذا كان الشر غيــر ممكن بــدون حرية، فالخير كذلك، والحق أيضاً ارتكب الانسان الشر فطرد من الجنة.

فقبل أن يطرد الانسان وامرأته من الجنة، كانا يلبسان **أقمصة من جلد** كما يلبس المحكومون ثوباً موحد اللون مخططاً قبل أن يرسلوا إلى الأشغال الشاقة. فسألت والدي:

وهل بقي البشر التعساء طويلاً في أقمصة الجلد ؟؟..

فأجاب والدي :

"**إننا لا نزال نلبسها، إنه لحمنا، وعظمنا، وشحمنا ومادتنا الثقيلة المعرضة للفساد والتلف، والتي تسبب المرض والشيخوخة والموت، هذا هو قميصنا الجلدي لباس قصاصنا ودينونتنا**".

كانت صدمتي عنيفة، إذ أنني كنت أجهل حتى ذلك اليوم إنني أتشح بلباس القصاص، فنظرت لأول مرة إلى يدي وصدري ورجلي، نظرة كلها كراهية وقلقاً، جسدي أنا هو إذن لباس قصاص ... طبعاً، إن "**قميصي الجلدي**" كان صغيراً، ومع ذلك كان خجلي منه كبيراً، كان يخجلني جداً.

فنظرت إلى قوام والدي المجرد وقلت له:

"أنت أقل قصاصاً من الآخرين، تنقصك المواد الثقيلة، ليس لك إلا بعض العظام، وجلداً أبيض يكاد أن يكون شفافاً وجسدك يحوي أقل ما يمكن من المواد، فالله لم يعطك جسدك بمثابة قصاص، ولم يلصق بك "**قميصك الجلدي**" بمثابة قصاص لك، وإنما دعامة، ليحمل ثوبك الكهنوتي إن الله يحبك حباً جماً لأنه وهبك معطفاً من جلد خفيفاً.."

كنت فخوراً بوالدي، لقد كان يحمل أقل ما يمكن من المواد الثقيلة، **شأنه شأن القديسين الذين نرهم في الأيقونات وكان الروح القدس يتجلى في جسده.**

على أثر هذه الشروحات، زاد حبي لوالدي، بسبب روحانيته، وبسبب النعمة التي أسبغت عليه في منحه بشرة شفافة.

فقال والدي : "إن جودة الله لا متناهية، لما رأى الناس يضلون، ويئنون، ويتعذبون على الأرض في قميص قصاصهم، أشفق عليهم، كما يشفق كل أب على أبنائه، بعد أن عاقبهم وطردهم من البيت الوالدي، رضخ الله لجودته الأبوية، وقال: "**أردهم إلى بيتي**". فأرسل ابنه **يسوع المسيح** إلى الأرض، يدعو الناس ويردهم إلى الحظيرة الأبدية، ويرفعهم إلى **درجة الألوهية**، كما كان مقرراً منذ بدء الخليقة، **فهدف نزول المسيح إلى الأرض هو جعل الناس آلهة** كما يقول **القديس أغناطيوس** بوضوح:

"**تجسد الله لكي يصبح الإنسان إلـهاً**".

وقد أكد ذلك كل آباء الكنيسة قبل **القديس أغسطينوس.**

يسوع المسيح نفسه لبس "**القميص الجلدي**"، قميص الحكم التي يلبسها الناس، ونزل إلى الأرض، وصُلب فيها ليكفّر عن خطيئة البشر، وهكذا لما كفر عن خطيئة البشر، **أرجع إليهم صفة أبناء الله، وأعاد إليهم الحق في وراثة الملكوت.**

ولما أتم **يسوع** هذا العمل السامي، صعد إلى السماء بالقرب من أبيه الآب ولكن قبل أن يغادر الأرض جمع رسله وأعطاهم **الروح القدس**، أي **السلطان الإلهي** ليستطيعوا هم بدورهم أن يردوا الناس **إلى بنوة الله**، كما فعـــل المسيح
ذاته. وفيما كان يولي السلطان الإلهي لرسله قال لهم: "**هاأنذا معكم طوال الأيام إلى انقضاء الدهر**". (متى 28 : 20). وبقي **الله** فعلاً على الأرض لأنه عهد بسلطانه إلى رسله، والرسل بدورهم نقلوا هذا السلطان الإلهي إلى الكهنة والأساقفة، بواسطة **وضع اليد على الرأس** **Cheiotonia** وبواسطة وضع اليد هذه انتقلت **شعلة الكهنوت الإلهية** من جيل إلى جيل، حتى وصلت إلينا، وبواسطة وضع اليد تتالت **السلسلة الكهنوتية** من المسيح–وبدون انقطاع–إلى الرسل والأساقفة، خلال ألفي سنة حتى وصلت إليَّ أنا والدك.

وهذا السلطان الذي أعطاه السيد المسيح إلى **الرسل والكهنة** ينتقل إليك من بعدي، إذا كنتَ أهلاً له، ومن ثم إلى أبنائك وأحفادك، وإلى المختارين من ذريتك، حتى انتهاء الأزمنة وذلك **لكي يظل الله مع البشر بواسطة الكاهن**، **فدور الكاهن هو دور أب**، والآن تفهم لماذا كل الناس يدعون الكاهن (**أبـــا**) لأن **الكاهن هو الذي يرد الناس إلى صفة أبناء الله.**

التصقت بوالدي فيما كان يتابع قائلاً:

إن الكاهن، عندما يعمد الناس ويردهم إلى بنوة الله، **يغفر لهم، كما فعل الله نفسه**، فالذي يرد الناس إلى **صفة أبناء الله** يدعوه الناس (**أبانـــا**) كما يدعون **الآب السماوي** (**أبانـــا**).

وأنا أمام والدي، شعرت بنفس العاطفة التي شعر بها **موسى** على الجبل في **حضرة الله**، لدرجة أنني أردت أن أستر وجهي.

فكنت أحس وأرى الشعلة–ألسنة النار المقدسة–فوق رأس والدي، مثل التي نزلت من السماء على رؤوس الرسل، **فوالدي يحمل الآن شعلة الكهنوت** التي تسلمها كما يتسلم العداءون الشعلة الأولمبية المقدسة من بعضهم بعضاً، وخفت أن تضيع شعلة الكهنوت الإلهية هذه، فيفقد الناس النور الإلهي، وفهمت فيما بعد **عظم المأساة في موت أسقف لم ينقل هذه الشعلة**، لقد أخبروني مرة أن جماعة من المهاجرين وصلوا إلى العالم الجديد "**أميركا**" مع اسقفهم فبنوا كنيسة وبدءوا حياة هانئة، وذات يوم توفي الاسقف فجأة، فوجد المؤمنون أنفسهم **في ظلمة بدون الله**، لأن يد الاسقف التي كان بإمكانها وحدها أن تنقل **شعلة الكهنوت** قد ماتت، فحتى لا يظلوا بدون شعلة الكهنوت، وبدون **نور إلهي** يُعطى إلى البشر، وحتى لا يموتوا في الظلمة، حاول المهاجرون المساكين يائسين أن يضعوا يد اسقفهم **المائتة** على راس خليفته، ولكن يد الاسقف مائتة لا تنقل شعلة الكهنوت، فتحقق المسيحيون المنفيون أمام يد اسقفهم المائتة أنه **بموت اسقفهم قد مات الله** بالنسبة إليهم فكأن الشمس قد انطفأت فجأة، ساعة موت اسقفهم.

كان والدي يحمل هذا النور الإلهي، وأنا كنت خائفا" على حياته، لأن **نور الكهنوت عزيز**، ووالدي ضعيف البنية.

بواسطة هذه الشعلة يكمل الكاهن عمل اليوم الثامن، عمل خلق العالم خلقاً جديداً، عمل تأليه العالم "جعله إلهاً".

بينما كنت أصغي إلى والدي، خامرني شك، فقلت:

"إن أقمصة الجلد الكريهة، هي دائمة الالتصاق بنا وإننا نلبس لبس قصاصنا، وديونتنا. وإن الله قد غفر خطايانا ورد لنا صفة الأبناء والورثة، فكيف نحن لا نزال في ثياب الحكم بالأشغال الشاقة هذه ؟؟.."

فشرح لي والدي وقال: "**إن الإنسان وإن عوقب وألبس قميص الجلد، وطُرد من الجنة، فإنه يظل من نسل إلهي، فلا يسوع المسيح، ولا الكهنة الذين أخذوا الروح القدس يمكنهم أن يقودوا الناس إلى السماء ويعملوا منهم آلهة، كما يُقاد القطيع إلى الحظيرة. ولكن بواسطة تجسد المسيح، وبواسطة الكهنوت نال الناس الغفران، وهم مدعوون لأن يستردوا حقوقهم كأبناء لله. ولكن بما أن الناس أحرار، فبإمكانهم أن يرفضوا هذه الدعوة.**

إن الله قد أعطى الحق لكل إنسان أن يتصرف كما يشاء، فالعبيد والحيوانات تُقاد بالقوة وقطعاناً، أما البشر هذه الكائنات المؤلهة فتُدعى دعوة، لا أكثر. وللإنسان الحق في أن يرفض أو أن يقبل هذه الدعوة كل واحد بمفرده. فالرجال والنساء لا يعتبرون بالجملة، وإنما بصيغة المفرد، فالإنسان لم يُخلق حراً فحسب، وإنما أيضاً واحداً كما أن الله واحد. لذلك فالدعوة تكون بصيغة المفرد. وهي موجهة إلى كل إنسان، وإنني معجب بهذه الوحدانية التي تميزنا عن الحيوان والنبات، وعن بقية الكائنات الأخرى التي خلقت بالجملة.

وبدلاً من أن تغار وتبكي عندما تسمع الناس ينادون والدك "أبانـــا"، يجب أن تشكر الله على هذا الامتياز الذي خصك به.

فسألت والدي: "وأي امتياز هذا ؟؟.."

فقال لي: "**أنا والدك من وجهتين، وأنت ابني من وجهتين أيضاً، أولاً من ناحية اللحم والدم مرة، والثانية من ناحية الروح مرة أخرى، واعلم أن للأولاد الآخرين والداً من وجه واحد، وهو وجه اللحم والدم فقط** "..

في ذاك المساء أطلتُ شكري لله، لأنه لم يكن والدي مشتَركاً، ولم يكن عليَّ أن أتقاسمه مع كل البشر الأحياء والأموات، ومع الذين سيولدون. **كان لي والد من وجهتين اثنين**، وأنا كنت ابنه من وجهتين اثنين أيضاً، **تلك سعادة لم أحلم بها إطلاقاً، فيا لعظمها.**

طفولة في السماء المشيدة على الأرض

نتيجة لذلك أصبحت طفولتي **حباً لاهوتياً بريئاً**، فلم أفتن ألعاباً دنيوية. وأكثر منها: لم أعرف ما هو الدنيوي والعلماني، وما هو الشر. وهكذا لما عرفت من الكتب فيما بعد أن **الشر غير موجود علمياً**، فرحت فرحاً عظيماً لأنني منذ طفولتي كنت على يقين بأن الشر غير ممكن الوجود فعلاً. فوجدت نفسي سعيداً" من هذا التثبت. وبالواقع، إذا تم عمل ما بطريقة سيئة فكأنه لم يُعمل. فإذا أساء الطباخ إعداد لون من الطعام لدرجة أنه لا يُؤكل فكأنه لم يُعده. وإذا صنع الإسكافي حذاءً لا يصلح للاستخدام فكأنه لم يصنعه، **وإذا عشنا بجسدنا فقط لدغدغة أحاسيسنا متجاهلين أفضل ما فينا–الروح الإنساني الذي هو إلهي– فكأننا لم نعش إطلاقاً** فالذين يعيشون بأحاسيسهم وأجسادهم فقط، فكأنهم ما عاشوا أبداً. إنهم غير موجودين، فلم يوجدوا إطلاقاً ولن يوجدوا لذلك ينفي **القديس توما الاكويني**، هو أيضاً، وجود الخطأة فيقول:"**بسبب خطاياهم، الناس غير موجودين**".

ولفظة "**وجود**" عند الهندوس هي مرادفة للفظة "**الخير**" فاللفظتان هما بمعنى واحد. و"**عدم الوجود**" هي مرادفة "**للشر**".

فالوجود يعني الصلاح، وعدم الوجود يعني الشر.

ولكني لأسباب أخرى كنت أجهل الشر والدنيوي جهلاً تاماً، أولاً، كنت أعيش في عالم رائع يبهرني بإشراقه الفائق، كنت أعيش في حرم الكنيسة المقدس.

والكنيسة هي أيقونة في الهندسة المعمارية، وكل كنيسة هي نسخة عن السماء. إذن، كنت أعيش في **السماء المشيدة على الأرض.**

وفي عالمي هذا كان يتوفر كل البهاء، الإلهي والكوني. فخدمة القداس الإلهي تقام في الكنيسة وفي السماء بنفس الوقت. فكل خدمة هي مزدوجة تقام هنا، وفوق في السماء يحضرها الله، والملائكة، والقديسون، بشكل سري.

في البداية، كان وجود الملائكة يستأثر اهتمامي. فكنت أشعر بوجودهم حولي، وأتأثر رغم احتجابهم. وكان الملائكة يحيطون بوالدي فور دخوله الكنيسة. والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول:

"الملائكة يحيطون بالكاهن عندما يقيم الذبيحة الإلهية، والجنود السماوية المصطفة باحترام حول المذبح، حيث تسجى الذبيحة، تتأمل متهللة بإشراق الله وعظمته.

"جمهور الملائكة بثيابهم الساطعة يحيطــون بالمذبح ويحنون رؤوسهم مثل الجنود في حضرة إمبراطورهم".

فوالدي لم يكن وحده في المعبد إطلاقاً **"لأن القوات السماوية تملأ المعبد وتحيط بالمذبح، وتزيح القائم عليه"**، والدي، وإن كان لا يزال في الجسد، اعتُبر أهلاً لأن يكون خادماً في السماء برفقة **القديسين والسيرافيم والشيروبيم** وأكثر من ذلك أيضاً، كان القديسون أنفسهم يخدمونه أثناء الذبيحة الإلهية، لأن **الملائكة يخدمون مع الكاهن، والله يحضر شخصياً بحال غير منظورة"**. و**الرسول بولس يحث النساء لأن يغطين رؤوسهن في حضور الملائكة".**

لما كان والدي يرتدي اللباس المذهب والفضي، كان يقطع كل رباط مع الأرض ومع العالم، **"فالملابس الكنسية تعني أن الكاهن قد قطع تماماً كل القيود مع العالم، وأنه يمثل الله".**

فعندما يرفع الكاهن ذراعيه، يجب أن يتيقن أنه يفتح كالملائكة جناحين .

يقول **القديس جرمانس:**
"أثناء القيام بالخدمة السيرافيمية يتوشح الكهنة بلباس بشكل أجنحة" وعندما كان والدي يستعمل الأواني المقدسة، لم يكن إلا مساعداً" لله على الأرض. كان يعـــاون الله، **والله يستخدم** يدي والدي للقيام بالأعمال المحسوسة، في حين أن **الله هو الذي كان يحتفل بالذبيحة الإلهية بطريقة سرية**، والملائكة تخدم الكاهن وتساعده أثناء إقامة الذبيحة".

كان الملائكة يرتلون مع والدي التراتيل والأناشيد، حتى أن واحدة من التراتيل_التريساجيون_هي من تأليف الملائكة، فقد أوحوا بها إلى المؤمنين في كاتدرائية القسطنطينية.

والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول للكاهن: **"تفكّر بحضرة مَن أنت واقف وبصحبة مَن ستبتهل إلى الله، بصحبة الشيروبيم، وتفكّر في أية جوقة ستدخل. فلا يشتركنّ أحد بهذه الترانيم المقدسة والسرية، بإهمال وخفة ولا يحتفظنّ أحد بأفكار دنيوية. ولكن** –بعد أن يتحرر من الأمور الدنيويــة، ويرتفــع بكليته إلى السماء كأنه يقف في حضرة العزة الإلهية، ويرفرف مع السيرافيم– **عليه أن ينشد التراتيل المقدسة لإله المجد والجلال".**

من فرط مخالطتي السماء، بت أميّز جلياً في عمر مبكرة كل **المراتب السماوية**، لقد كان بمقدوري أن أميّز عن بعد شاروبيماً من بين ملائكة آخرين لأن الشيروبيم **"كثيري الأعين"**، بينما يقف السيروفيم في حلقة حول المذبح **بأجنحتهم الستة**، باثنين يسترون **وجوههم**، وباثنين يسترون **أرجلهم**، **ويطير** الواحد نحو الآخر بالاثنين الأخريين، ولا ينفكون يرتلون تسابيح لا تنتهي...

يرتلون ، ويسبحون، وينشدون نشيد الظفر قائلين:

قدوس، قدوس، قدوس ...

فقد حفظت هذه الأشياء لأن كل شيء في الكنيسة يُمَثّل برموز، فكنت أعرف أن **"الجناح هو رمز السرعة والخفة في الارتقاء، رمز ما هو سماوي"**، رمز ما يوصل إلى العلى، رمز الصعود وتخطي كل دناءة.

أجنحة الملائكة هي غاية في **الخفة**، وخفتها تشير إلى **أنهم خلو من كل ميل دنيوي**، وأنهم يرتقون إلى الأعالي **بخفة وطهارة**، وكنت أعرف أنهم لا ينتعلون أحذية إطلاقاً فإنهم دائماً حفاة. وأعرف أن الأرجل الحافيـــة ترمز إلى تحررهم وانعتاقهم، وإلى أنهم **أنقياء** لا يخالطهم أي همّ خارجي، وإلى أنهم يتمثلون ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً **بالبساطة الإلـهية**.

ملابس والدي الكنسية، وثياب القديسين، وأوجه الشهداء والمعترفين، والبطاركة، والأنبياء في الأيقونات وحضور الآلهة السماويين، والمذبح، والذبيحة، والموسيقى، وشاعرية الطلبات–الابتهالات- كلها كانت تدهشني وتبهرني في عالم طفولتي السماوي، كنت على يقين بأن **القوات السماوية البهية، كانت ترافقني وتقودني وتحميني في كل لحظات حياتي**. **فملاكي الحارس** كان قائماً عن يميني دائماً وأبداً، وبصورة غير منظورة يسهر على كل حركاتي وسكناتي.

كان يحيط بي الملاك الذي يسوس كنيستنا، والملاك الذي يسهر على بيتنا، والملاك الذي يحرس والدي والملاك الذي يرعى قريتنا، والملاك الذي يدبر وطننا التعيس رومانيا، وأنا لم أنفصل قط عن هؤلاء الأشخاص السماويين. فهم الذين سهروا على تربيتي وعلموني النطق، والسير، والصلاة، هؤلاء الأشخاص الآتين من فوق هم الذين قادوا خطواتي واصلحوا سيرتي وكلامي ومواقفي في الحياة، كانوا دائماً بقربي بطريقة **غير منظورة**، في حلّي وترحالي.

خرجت لأول مرة من هذا العالم الإلهي–حيث كنت الشخص الأرضي الوحيد تقريباً–يوم ذهبت إلى المدرسة يومها مشيت للمرة الأولى على الأرض الدنيوية غير المقدسة فإنني قد ولدت على أرض مقدسة، ولدت في **دار الخورنة في حرم الكنيسة، في السماء** ...

دار الخورنة .. مسقط رأسي والأموات جيراني

دار الخورنة هو **مسكن الكاهن**، إنه مبني بالقرب من الكنيسة، في الحرم المقدس، المسمى **Peribolos.** وفوق الباب الرئيسي ضمن باحة الكنيسة المسوَّرة ترتفع **قبة الأجراس**. حيث في قبة كنيستنا أجراس أصلية مصنوعة من **المعدن** مثل كل أجراس العالم، وبجانبها كنا نحتفظ بأجراس خشبية تسمى "**الناقوس**" وجرس الخشب هذا هو عبارة عن خشبة طويلة معلقة ومدلاة من السقف فنضرب عليها بواسطة مطرقتين خشبيتين إيقاع بعض الصلوات، أو النداءات، أو الطلبات .

خلال **ألفي سنة**، تتالت على بلادنا كل **الغزوات البربرية** الآتية من الشرق الواحدة تلو الأخرى، كما تتوالى أمواج البحر على الشاطئ، وأول عمل كان يقوم به الغزاة بعد دخول القرية المحروقة والمهجورة من السكان، هو الصعود إلى قبة الكنيسة، وإنزال الأجراس. كانوا يأخذون أجراس كل الكنائس، فيصهرونها ويصنعون منها **أسلحتهم**، وابناء وطني اللاجئون يرقبون ذلك عن بعد عاجزين، وبعد رحيل الوثنيين كان المسيحيون يعلقون في القباب أجراساً أخرى غيرها، لدعوة المؤمنين إلى الصلاة، منتظرين هجوم الغزاة مرة ثانية من الشرق. فأثناء **الاحتلال التركي** الذي دام **خمسة قرون**، لم يكن يحق للمسيحيين أن يقرعوا الأجراس حتى وإن اشتروها. فكان صوت الأجراس محرماً في القرى المسيحية. فلجأ كهنة القرى ورهبان الأديرة إلى أجراس خشبية ليدعوا المؤمنين إلى الذبيحة الإلهية.

في أيام طفولتي كانت قد انحسرت غزوات **الـهانس، والتتر، والقوزاق والأتراك**، لذلك الأجراس باقية في القبب، وكانت تقرع. وكنا نحتفظ بجانبها بكل ورع بأجراس الخشب، أجراس عصور المحن. وكنا نقرعها مع الأجراس المعدنية لندعو المؤمنين إلى الذبيحة. ولم يخطر ببال أحـــد إطلاقاً أن يزيل الأجراس الخشبية لأننا كنا نخاف دائماً غزوة جديدة محتملة بين يوم وآخر. فالكنيسة المنظورة على الأرض لا يصح أن تعتبر أن زمن الاضطهاد قد انتهى فحسنا" فعل المسيحيون في قريتي عندما أبقوا على الأجراس الخشبية.

فلما بلغت العشرين من العمر، وصل غزاة الشرق مجدداً، وصلوها **بطائرات أميركية، ودبابات إنكليزية وبنادق فرنسية**... فكل بلدان الغـــرب أسهمت في تسليح الغزاة. وأول عمل قام به هؤلاء لما وصلوا قريتي هو إنزال الأجراس المعدنية ليصهروها ويصنعوا منها أسلحتهم.

أذابوا **أجراس** كل الكنائس كما حصل منذ **ألفي سنة**، ولكن هذه المرة وصل الغزاة بأفواج لا تحصى بسيارات من صنع **أميركي**، وكانوا أكثر شراسة وضراوة من موجات **الفاندال**، **والفيزيقو**، **والقوزاق** السابقة لقد أنزلوا الأجراس، وأحرقوا القباب، والكنائس، وقتلوا **الكهنة والأساقفة** في كل مكان وذبحوا **الشمامسة والمرتلين** في الكنائس، وكل المسيحيين الممارسين.

وجدّوا في ملاحقة كل ما يذكّر بالإيمان المسيحي، ودنسوا كل شيء وانتهكوا حرمة **الأيقونات والصور المقدسة**، و**الصلبان**، وإمعاناً في التدنيس استخدموا لهذا الغرض أناساً من ديانات أخرى **غير مسيحيين** وهكذا بلغوا هدفهم الذي جاءوا إليه، إذ أن الحرب بدلاً من أن تكون ضد الدين فقد أصبحت **حربا**" **دينية** ولكنهم فشلوا، لأنه ليس بمقدورهم أن يحرقوا إلا نسخاً عن كنيستنا المقدسة، إذ أن **كنيستنا الحقيقية هي في السماء**، فهم يعجزون عن تدميرها حتى ولو كانوا مدججين بكل ما أرسل لهم الأميركيون من أسلحة حربية جهنمية مدمرة، وإذا كانوا قد قتلوا ألوفاً من الكهنة والأساقفة فإنهم **لم يقتلوا إلا خدام كاهننا وأسقفنا الحقيقي** الذي هو **يسوع المسيح** الموجود في كل مكان، ولا يطاله الرصاص.

فكل المجازر وكل الشرور التي فعلوها كانت بدون طائل، إنها مثل الضرر الذي أنزله أحد ملوك الفرس بالبحر، عندما أمر جنوده أن يجلدوا الأمواج بالسياط، كما يُجلد العبيد، فهذا يثبت رأيي بأن الشر لا يوجد حقاً وبأن الناس "**إذا خطئوا، لا يوجدون**" إذ "**ليس للشر كينونة**" فالشر هو العدم، وعما قريب يغيب الغزاة بسياراتهم الأميركية في عدم الوجود، في العدم.

كانت دار الخورنة الذي ولدت فيها، تتصل بالكنيسة بواسطة ممر لا يزيد عن بضعة أمتار، على جانبي هذا الممر تصطف المقابر بصلبانها الخشبية، لأن فناء الكنيسة المقدس كان يُستخدم مقبرة لقريتي الصغيرة.

فعلى هذا الممشى–الذي يقود من دار الخورنة إلى الكنيسة– تعلمت السير بين المقابر والصلبان، وخطوات أولى خطواتي على هذه الأرض ولم يكن يقوم أي حاجز أو أي فاصل بين الكنيسة ودار الخورنة والمقبرة هكذا فكل مَن يمت في القرية يُنقل إلى "**عندنا**" إلى باحة الكنيسة، ويدفن بالقرب من بيتنا.

فهمت منذ صباي بأن الأموات هم جزء لا يتجزأ من رعية والدي **فالموت لا يفصل مسيحياً عن رعيته إطلاقاً، ولا عن كنيسته، ولا عن كاهنه**، فالموتى يشاركون سرياً بنفوسهم في تجمع المؤمنين لإقامة الذبيحة ولا يؤلفون جزءً لا يتجزأ من الرعية، ولا يشاركون فعلياً في الذبيحة فقط، بل أنهم أفضل من الأحياء في نواحي كثيرة وعديدة، إنهم قد **تخلصوا أولاً من قميص دينونتهم، من قميصهم الجلدي**، وهذا ما يجعلهم أفضل منا حظاً نحن الأحياء، وبالتالي لم يعودوا عرضة للتجارب والخطايا، **فالأموات لا يخطئون**، فإني أحسدهم على ذلك، وعلاوة على ذلك إنهم قد **تحرروا من الهموم الدنيوية**، فلا يهتمون إلا بالجوهري، ومن هذه الناحية فإن وجودهم وراء القبر أفضل من وجود أكثر الأحياء كمالاً، فكل نهار أحد كنت أشعر بحضور الذين ماتوا من قريتي ودُفنوا بالقرب من بيتنا، حضوراً سرياً مع الملائكة حول المذبح أثناء الذبيحة الإلهية وبجانبهم يوجد مسيحيو قريتي الذين يولدون في الأيام، والسنوات، والأجيال المقبلة، ففي كنيستنا الصغيرة كما في كل الكنائس يُمحى الزمن فلا ماض، ولا حاضر، ولا مستقبل، فالزمن لا يتجزأ في الكنيسة إلى ساعات ودقائق وسنوات وأجيال. ففي منزلنا، أي في الكنيسة، وفي المقبرة، وفي دار الخورنة نعيش في الزمن الأول، **في زمن الله، في الأبدية**، فالقديس **أوغسطينوس** يؤكد "**أن العالم –إذن الحياة– لم يُخلق في الزمن إنما مع الزمن**". والموت لا يُخرج إنساناً خارج الزمن، إنه يظل داخل الزمن، وهكذا –منذ طفولتي– بما أنني معاصر للذين ماتوا وللذين سيولدون في الأزمنة المستقبلية، أقمت علاقات مع الموتى الذين يرقدون في قبورهم بالقرب من بيتنا، فالأموات كانوا أخوة لي رائعين، يرقدون بالمسيح، والصداقة التي تربطني بالأموات كانت دائماً أقوى من التي تربطني بالأحياء من أبناء قريتي، لأن الإنسان يرتبط بأقرب الجيران إليه، فمنازل الموتى كانت داخل سورنا، بينما كان الأحياء موزعين في رعية طولها ثلاثون كيلومتراً.

وفهمت أن الناس يموتون لكي ترتاح أجسادهم من مشقات الحياة الدنيا، وهم في راحتهم، ينتظرون القيامة لأن الإنسان خالد في نفسه وفي جسده كلنا سنقوم، وباستطاعة كل واحد منا أن يؤكد مع **أيوب**:

"**أعرف أنني بعد بلاياي هذه، سأقف منتصباً**".

ففي القبر يفنى **قميص الجلد** مع المادة الثقيلة الدخيلة على الطبيعة البشرية، والتي زيدت عليها بعد القصاص **إننا نودع في التراب جسماً حيوانياً، فيقوم جسماً كامل البهاء كما كان في الأصل**. (1 قور 15: 44) .

والقديس **غريغوريوس النيصي** يقول عن الموت:
"إنك تخفف عنا أهوال الموت يا إلهي، تدع جسمنا يستريح ردحاً من الزمن ثم توقظه بصوت البوق الأخير، إنك تعهد بنا إلى الأرض لتحفظنا.. ثم تستريح منا بقايانا المائتة، فتحولها إلى جمال خالد".

كل إنسان يحلم بالكمال، وحلمي أنا هو استرجاع جسمي الأصلي، الخالد الذي لا ينال منه، لا المرض، ولا الألم، ولا الشيخوخة، ولا الموت، كما نقول في رتبة الجنازة: **"أيها الرب، حتى وإن كنتُ احمل جراح الخطيئة، فإني صورة عظمتك التي تفوق كل اسم، ردَّ لي جمالي الأول وأرجع لي حقي في مواطنية السماء."**

والمقبرة بالنسبة لي كما بالنسبة للأموات، هي مكان للراحة والهدوء، فوالدي كان يردد دائماً كلام **غريغوريوس النزينزي** قائلاً:
"لنا حظوة أننا نعيش في بلد، رائحة أمواته طيبة، حتى ولو مات سكانه جوعاً، لأن الأزهار تغطي الموتى والقبور".

فالمسيحيون في قريتي، خوفاً من أن ينسوا أن يضعوا دائماً أزهاراً على القبور، كانوا يغرسون عليها يوم الدفن شجرة **مشمش، أو كرز، أو تفاح**، أو أية **شجرة مثمرة** أخرى، وهكذا أصبحت مقبرة كنيستنا أجمل بستان للفواكه في قريتي، ففي كل قرى **باترودافا** لا تجد بستاناً أجمل من المقابر، تحت كل شجرة مأتمية وعلاوة على الأزهار المألوفة، يزرعون نباتاً وأزهاراً متعرشة، من النوع الذي يتجدد كل سنة تلقائياً وبدون عناية. وهكذا ترى على كل قبر **ورودا متعرشة، وادرختاً، ونعنعاً، وريحاناً**، ويكثر نوع من **الأقحوان الأبيض** –يسمى عندنا- **"زوجيني يا أماه"**، لأنه يتعرش في كل الاتجاهات، إزاء كل الأزهار ويمتد من قبر إلى قبر، ويتسلق سور المقبرة فيعرض أزهاره للمارة في الشوارع، مثل صبية تتبرج وتسعى لأن تستلفت الأنظار فتطلب للزواج وعلة كل قبر تقوم توتة، وتوت أرضي (فريز)، وتوت عليق.. فترى العصافير كلها على موعد عندنا في المقبرة، المذبح المؤقت، وبين العصافير تزقزق بطريقة سرية، ملائكة المسيحيين الذين يرقدون، والملائكة رفاقي.

أحياناً، أشبّه المقبرة بخزانة ثياب، حيث يأتي كل إنسان يوماً يودع فيها قميصه الجلدي كما في مستودع ثياب البلدة، ويقال عندنا:

"عندما يموت الإنسان يتعرى من قميصه الجلدي، إذ أن الذين يعيشون في السماء ليسوا بحاجة إلى مثل هذه القمصان الجلدية، لأن الإنسان – فوق – يتزين بلباس الطهارة الذي ينسجه لنفسه على الأرض بسلوكه وأعماله"
والموت ليس تغيير لباس ، خلال الاستراحة في القبر:

"نترك لباس القصاص الثقيل والمخجل، قميص الجلد، ونتشح بوشاح الخلود البهي، لأن الإنسان يُستقبل بالموت، يتجدد نسجه، ليس من تلك المادة الكثيفة وإنما بصورة خفيفة وأثيرية".

العيش في السماء

في وسط السور المقدس تنتصب الكنيسة بالقرب من الخورنة الذي وُلدت فيه.

وكما سبق ورأينا، **فالكنيسة وإن كانت قد بُنيت على الأرض فإنها ليست بناءً أرضياً**، وعلى كل حال فإنها تشبه أي بناء آخر، **إنها نسخة أرضية منقولة عن الكنيسة الحقيقية في السماء**، فكل كنيسة أرضية هي في السماء كما يصفها القديس **يوحنا الحبيب** في سفر **الرؤيا**، والمباني التي نراها في المدن والقرى ونسميها كنائس، ليست إلا نماذج عن الكنيسة الأصلية.

إنه يستحيل بناء مسكن سماوي على الأرض، لأنه يستحيل بناء السماء بالرخام أو الغرانيت أو الخشب، أو بأية مادة أخرى من المواد الثقيلة التي نملكها على الأرض فالمسكن السماوي يجب أن يُشاد بمواد سماوية ونحن لا نملكها، لذلك نبني على الأرض نماذج عن كنيستنا، حسبما أوحي للأنبياء ونستعين بالرموز، **والرمز هو التعبير بالصورة، بطريقة غير مباشرة، عن الحقائق التي نعجز أن نعبر عنها مباشرة**، بسبب افتقارنا إلى الوسائل وفهم الرمز هو المساهمة في استحضار ما يمثل. **فالأيقونة، والكنيسة، والاحتفال بالذبيحة والتعبد** ذاته، مهما كان، لا قيمة لها في نظر غير المؤمن، كما أن لا قيمة لأثمن كتاب في العالم بالنسبة لأميّ، **فمن لا يؤمن يقف غريباً أمام الكنيسة، والليتورجية، والأيقونة**، مثل الأميّ أمام صفحات الكتاب.

أول الرموز هو **شكل الكنيسة**، إنها تشبه **سفينة** متجهة نحو الشرق، وشكل السفينة يرمز إلى **الكنيسة** ليست الأرضية، إنها تطفو مثل سفينة فوق الأرض. من ثم إنها **صورة الله** وهكذا ترمز إلى **الكون** كله لأن الله هو الكل، والكنيسة تقسم إلى ثلاثة أقسام لأن الله مثلث الأقانيم.

فالقسم الرئيسي في الكنيسة هو **قدس الأقداس** الذي يرمز إلى السماوات، **وسماء السماوات** حيث يقوم عرش الله **والكاهن** الذي ينوب عن الله يقف في قدس الأقداس.

والقسم الآخر من الكنيسة أي **صحن الكنيسة** يمثل **العالم المنظور**، ففيه قبة الكنيسة التي ترمز إلى السماء **وأرض الكنيسة** ترمز إلى ما يوجد على الأرض، وعلى القبة صورة **السيد الأعظم** تعلو كل الصور، إنه يرمز إلى **الشركة في المحبة والاتحاد بالمسيح**، شركة قديسي الأرض مع قديسي السماء

وتحت صورة السيد الأعظم نرى صورة المسيح تتوسط الأيقونات، وعن جانبيه **أمه ويوحنا المعمدان، والملائكة والرسل** مع باقي **القديسين**، كل هذا لكي نتذكر بأن المسيح هو في السماء بصحبة القديسين، وإنه معنا، وسيرجع يوماً.

تحت هذه الأيقونات يجتمع المؤمنون لإقامة الذبيحة الإلهية والقديسون الذين في السماء ولا يفصل بينهم شيء، **فالسماء والأرض لا تنفصلان** أثناء الذبيحة ولهذا السبب **يبخر** الكاهن المسيح والقديسين والمؤمنين لأنهم مجتمعون في سفينة واحدة، ومختلطون، قديسو السماء. لأن **الكنيسة** قبل أي شيء آخر هي **مكان المصالحة بين السماء والأرض**، هي اختلاط السماوي بالأرضي، بفضل حضور المسيح.

فالرموز لا تحصى، وكلها تعبّر عن التقاء السماء والأرض، إنهما تختلطان فيها كما تختلط مياه النهر في المصب، **والكنيسة** كالأيقونة هي تكملة لصلاة **الافخارستيا**، وهي جزء مكمل **لليتورجيا**.

وبما أن الكنيسة هي السماء، فبإمكاني أن أجزم وبدون مبالغة بأنني قضيت طفولتي في السماء، أي في صحن وضمن السور المقدس... فكانت حياتي بالمعنى الحقيقي والمجازي هي **ليتورجية** مستمرة وسامية.

فمنذ أن بدأت أحبو، كنت بالقرب من والدي، أشاركه في كل الرتب: القداسات، والجنازات، والعمادات والزواجات، والزياحات، والطلبات ...

عددياً، رومانياً هي البلد الأرثوذكسي الثاني، ونحن الشعب الأرثوذكسي اللاتيني الوحيد، فإننا نستعمل كلمات لاتينية أكثر من أي شعب آخر، مع أننا نكهن بلغتنا الأم.

إنه لا يحق للكاهن أن يقيم الذبيحة الإلهية، أو أية رتبة أخرى كبيرة ما لم يحضرها شخص واحد على الأقل، فكنت أنا دائماً هو هذا الشخص الثاني، ونعرف أنه حيث يكهن كاهن بحضور شخص واحد يكون الله معه حاضراً، فهؤلاء الثلاثة: **الله، والكاهن، والمؤمن** يؤلفون لوحدهم كنيسة كاملة، إلهية رسولية وكاثوليكية فأنا، ووالدي، والله كنا نؤلف هذه الكنيسة، نؤلف جسد المسيح السري، ولفظة "**كاثوليكية**" لا تعني عندنا كنيسة تشمل عددياً كل الشعوب في كل مكان على الأرض، وإنما نوعياً، لأن من يتحد بالله هو في شركة مع الكون بأجمعه، وكل كنيسة تعجز أن تكون أكبر، أو أشمل من الكنيسة التي كنا نؤلفها **أنا، ووالدي، والله**، رغم أننا لم نكن إلا ثلاثة، في صغيرة من خشب، في أطراف جبال **باتروداڤا**، أنا كنت أعرف ذلك، كنت أعرف أننا نؤلف كنيسة لا يمكن أن يوجد أكبر وأشمل منها، لأنه لا شيء أكبر وأشمل من الله الذي كان معنا، والذي يمثل الكل.

وقمة حياتنا كانت الاحتفال بالذبيحة الإلهية، **فالافخاريستيا** ليست إعادة لذبيحة المسيح، وإنما هي دائماً ذبيحة فريدة تتم أمام عيوننا، فقد كنت حقيقة شاهداً لحياة المسيح، ومعاصراً لآلمه على الجلجلة ولقيامته وأحياناً كان يدفعني إيمان طفل شاعر متحمس، فكنت أعرب عن أسفي لأنني لم أعش في زمن المسيح تمنيت لو رأيته صغيراً، في المذود كما رآه المجوس والرعاة، ولكن والدي يؤكد لي بأني أعاصر المسيح، وبأن كل مسيحي هو معاصر للمسيح، وكان يستشهد بكلام يوحنا الذهبي الفم فيقول:

"أنت لست المسيحي الوحيد الذي يأسف لأنه لم يرَ المسيح، فكم من أناس يقولون اليوم إني أريد أن أراه شخصياً، بوجهه، وملامحه، وثيابه، وحذائه. إنكم ترونه، وتلمسونه، وتأكلونه... إنه يهبكم ذاته... لأن جسد المسيح لم يعد في المذود، وإنما على المذبح... لم يعد بين أيدي امرأة بسيطة، انظروا، ها أن الكاهن يمسكه، إنكم لا ترونه فقط وإنما تلمسونه أيضاً، ولا تلمسونه فقط وإنما تأكلونه أيضاً، وتحملونه إلى منازلكم".

إن ذلك لصحيح، إني أعرف **حاخاماً** كان يؤكد أنه كان يستطعم نبيذ الفصح في فمه، حتى عيد المظال في الخريف. وأنا سأظل حتى الموت أحس بحروق **ملعقة الفضة** التي كنت أتناول فيها دم الرب يسوع، ومن الطبيعي أن تبقى هذه الحروق على شفتيَّ، فملعقة المناولة تسمى في اليونانية /**Labis**/ أي **ملقط**، إنها ترمز إلى الملقط الذي يأخذ به **السيرافيم** الجمر عن مذبح الرب، كما يقول **أشعياء النبي**: "قطار إليَّ أحد السيرافيم وبيده جمرة أخذها بملقط عن مذبح ومس بها فمي".

والقديس يوحنا الدمشقي يقول أننا في المناولة نأخذ جمراً متلظياً: "**لكي تتحد نار أشواقنا بتأجج الجمر فتذيب خطايانا وتنير قلوبنا، فنتنقى ونصبح آلهة عندما نشارك في النار الإلـهية**".

نتناول –الجمرة المحرقة– ويدانا مضمومتان، وقوفاً أمام الباب الملوكي لقدس الأقداس، الذي يرمز إلى باب الجنة، فأثناء المناولة كنت أسمع صوت المسيح يقول: "**إني أغذي خاصتي... أنا أهب نفسي غذاءً لنفوسكم.. أردت أن أكون لكم أخاً، ولهذا اتخذت لحماً ودماً مثلكم، هوذا أنا أقدم لكم هذا الجسد وهذا الدم اللذين جعلاني من سلالتكم**".

لقد مزج الله دمه بدمنا لكي نتحد به نحن البشر فنصير وإياه واحداً. (الذهبي الفم) .

وكلما تناولت مرة كنت أشعر ليس فقط بأنني قد غُسلت من خطاياي، وإنما أيضاً بأنني قد رُفعت إلى مصاف الآلهة، لأنه **كان يجري في جسمي نفس الدم الذي يجري في جسد الله، فكنت ابناً لله بالدم، وأحمل الله في ذاتي، فكنت حامل الله**، فهمت لماذا تتغير وجوه المؤمنين عند خروجهم من الذبيحة الإلهية، وتتألق كأنها تحت أضواء المسرح، **الله الذي كانوا يحملونه هو الذي كان يشرق فيهم**. كل مرة كنت أتناول لم أشعر فقط بأنني ابن الله، **وإنما أيضاً بأنني أخ بالدم لكل مسيحيي العالم، أخ بالدم لكل المسيحيين الذين عاشوا ويعيشون حالياً وسيعيشون غداً، لأن نفس الدم الإلهي الذي يجري في جسمي قد جرى ويجري وسيجرى في عروقهم، هذه هي الاخوة البشرية والكونية، هي كمال المسيحية**، فكل شيء يدخل في هذه الليتورجية الكونية، والكون كله واحد لا يتجزأ، **فأنا كنت جزءً من الله، والله كان جزءً مني**. وفي تلك اللحظة كنا نعيش في الأبدية، لأن الأبدية تبدأ هنا على الأرض، وعندما نكون في الكنيسة نكون عندئذ في السماء، نكون في الأبدية ، فأنا قضيت طفولتي إذن في الأبدية، في السماء.

مشاكل آبائي الأرضية الرهيبة

يوم كنت أعيش مع والدي في السماء المشيدة على الأرض، وفي الأبدية، وحيث كنت بالفعل ابناً لله وأخاً لكل البشر بالدم الإلهي، في كل الأزمنة، وفي الكون كله، اكتشفت شيئاً خطيراً.

لقد قالت لي والدتي الخورية يوماً:

- لا تتحدث عن والدك بعد اليوم، فوالدك لا يحبك.

فاعترضت.. لقد كنت أعرف الحب المتبادل القائم بيني وبين والدي بالجسد والروح، كنت أحتفل معه بالذبيحة الإلهية كل يوم، وحوارنا اللاهوتي كان يطول ولا ينتهي، مثل حوار المحبين، ولكثرة ما كنا نتحدث عن القديسين والشهداء ونحلم بجمالات الجنة كنا نعرفهم كما لو أننا عشنا معهم في الجنة، كنا نعرف سماءنا العلوية، تماماً كما نعرف سماءنا السفلية: كنيسة الخشب الصغيرة الحقيرة، حيث كنا نحتفل بالذبيحة كل يوم.

- لو كان والدك يحبك كما يحب الأب ابنه، لما صرّح للسلطات عن ولادتك بطريقة مغلوطة، لقد وقع خطأ في تسجيلك في دائرة النفوس، والخطأ في تسجيلك يرجع إلى والدك لأنه لا يحبك، ويجب أن تعرف ذلك.

تصريح خطير.. فأنا ووالدي مسيحيان، والمسيحي هو قبل كل شيء صادق، لذلك يعيش بسلام وانسجام مع نفسه ومع الخالق ومع كل المخلوقات، فالآن قد اهتز الانسجام الكوني الذي كنت أعيشه، فكما أن ذبابة واحدة تسقط في صحن الطعام تكفي لأن تلوّث الصحن كله، كذلك ذبابة واحدة تكفي لأن تشوش التناغم الكوني، وجرثومة لا تُرى كافية لأن تهدم إنساناً قوياً وجميلاً وتقتله. فتصريحات والدتي الخورية أذلتني حتى الانسجام.

- أنت وُلدتَ في التاسع من شهر أيلول، عيد القديسين **يواكيم وحنة**، في تلك السنة دخلت بلادنا الحرب الكونية، هذا حدث أكيد، فالأم هي أفضل من يعرف تاريخ ولادة ابنها، أنت وُلدتَ في اليوم التالي لعيد **ميلاد العذراء**، والذي هو عيدي أنا، وهذا عيد ثابت أيضاً، إنه يقع في الثامن من أيلول، وأنت وُلدتَ في اليوم التالي للعيد.

كنت أصغي إلى والدتي بقلب منكسر، وأمي الخورية بطبيعتها مثل الحديد المحمى يكوي ويؤلم الجرح وإنما يشفيه.. وكانت والدتي شديدة في الدقة.

ولكن بما أن الحياة مستحيلة على هذا المستوى من الصفاء، فقد لجأت إلى عالم الصلاة والشعر، فكانت ترتقي إلى السماء على سلم الإيمان، إيمان صاف وخالص كخيط الحرير، فكانت تؤلف صلوات وترانيم وابتهالات سماوية الجمال وكان قلبها "**مذبحاً، تصعد عليه نحو العلى، صلوات نقية، كأنها بخور زكي الرائحة**".

ففي الليالي العاصفة، عندما كان الثلج يحوّل جبال **باترودافا** إلى جحيم من اللهب الأبيض، كانت والدتي تسرج الأضواء على كل النوافذ، على نية المسافرين التعساء الذين فاجأتهم العاصفة، وكانت تقضي ليلها في كتابة صلوات رائعة، من أجلهم، لكي ينجوا من الموت. وكانت تصلي أيضاً في فصل الربيع من أجل براعم وأزهار الكرز التي كانت تتفتح باكراً فيميتها الجليد كما تموت بعض الأطفال ساعة ولادتهم، وحالما تنزل عن سلم شعرها الحريري وتحتك بالعالم الأرضي، كانت تؤذي نفسها، أو تؤذي الآخرين. وذلك بسبب انعدام المستوى بين عالمها النقي، المطلق، وبين العالم الأرضي. وهكذا أساءت إليَّ إذ كشفت لي أشياء لا تُحتمل.

فقالت: أنا لا أستطيع أن أنسى تاريخ ولادتك، حتى ولو حاولت ذلك. إذ بسببه تشاجرت مع والدك لأول مرة شجاراً عنيفاً، كان والدك يريد أن يسميك "**يواكيم**" لأن العادة تقضي بأن يُعطى الطفل **اسم شفيعه** فرفضت أنا، وبكيت قلت لوالدك إن اسم **يواكيم** هو من أقبح الأسماء المعروفة، وإني أفضل الموت على تسمية ولدي **يواكيم**، مقابل لا شيء، فتراجع والدك وهو يبتسم، ولكنه لم يكن راضياً، ولكن يجب أن تعلم أن الفضل يعود إليَّ أنا إذا كنت اليوم لا تُدعى **يواكيم**.

أدركت فيما بعد أن لكل اسم تركيبة كيميائية خاصة لا يعرفها إلا الشعراء، فكان يحق لأمي الشاعرة أن تحب اسماً وتكره آخر، ولم يكن بمستطاعها أن تفصح عن الأسباب، فتابعت تصريحاتها قائلة:
- وبعد أن اخترت لك هذا الاسم الرائع "**فيرجيل**" من بين كل الأسماء طلبت من والدك أن يذهب إلى دار المختارية ليسجل ولادتك، فرفض، ومر الزمن، وبعد مضي شهر على ولادتك وصل رجال الدرك إلى دار الخورنة ببنادقهم ومسدساتهم وحرابهم وجزماتهم، ووجوههم تنذر بالويل، ودنوا ليعتقلوه ويقيدوه كما يقيدون المجرمين، وكانوا يتهددونه بالسجن في زنزانة ينام فيها على القش الرطب. كل ذلك لأنه لم يصرح عن

ولادتك إلى دار المختارية كما تقضي القوانين، عندئذ اضطر أن يقر بوجودك ، فصرّح بأنك وُلدت ولولا ذلك لما فعل، ولكنت عشت على الأرض متخفياً.

كنت أصغي إلى والدتي وأبكي بدموع ثخينة.

فقالت والدتي: كفَ عن البكاء، أنت الآن مسجل في دار المختارية، ووجودك لم يعد سرياً على الأرض وإنما في تسجيلك خطأ.

فقلت لها: هذا غير صحيح!.. فوالدي لا يستطيع أن يفعل هذا.

فقالت: شهادة ولادتك تقول أنك قد وُلدتَ في 15/أيلول. وهذا خطأ.

فقلت لها: هذا مستحيل!..

وهربت لكي لا أسمع هذه القصة المحزنة، فصرخت والدتي تقول:
- بسبب والدك، إنك ستعيش بوثيقة ولادة مزوّرة، مثل الخارجين عن القانون.

فأكملت طريقي راكضاً، أُفتش عن والدي وأنا أبكي، وحالما وجدته بادرته بالسؤال: أصحيح أنك صرّحت خطأ عن تاريخ ولادتي؟؟..

احمرَّ وجه والدي، ثم أبيضَّ، ولم يجب بشيء، شعر أنه أساء إليَّ وأن الانسجام الذي كان هو قد ساعدني على أن أحياه قد اهتز، وأن سماؤنا قد تحطمت كما يتحطم زجاج الكاتدرائية تحت حجر يُقذف من الشارع وفكّرَ بالخورية التي سببت لي هذا الجرح في نفسي، وشوّشت الانسجام والسلام في نفس صبي شاعر، ولكن والدتي لم تكن أكثر إثماً من الرهبان المتوحدين الذين عندما ينزلون من مغاورهم في الجبال يستخدمون كلمات قاسية، ويعاملون الآخرين بصرامة كما يعاملون أنفسهم.

فقلت لوالدي: أجبني.. هل أن وثيقة ولادتي مزوّرة، أم لا؟؟...

فأجاب والدي: مسيحياً، أنت مسجل في السماء.
وحاول أن يدغدغ رأسي بيده، فنفرت منه. ثم زاد قائلاً:
تسجيلك صحيح في كتاب الخالق، لقد نلت سر العماد، وتنصرت لما مُسحت بالزيت المقدس، وبما أنك خُتمت بخاتم الروح القدس فأنت من مواطني السماء، ولقد حل عليك الروح القدس كما يحل على كل طفل معمد، وكما حلَّ على الرسل يوم العنصرة، وأنت تعلم أن العماد هو عنصرة كل مسيحي بمفرده فألحيت في السؤال: هل من الخطأ في تسجيل اسمي في سجلات المختارية أم لا؟؟...

فأجاب: إن اسمك مدوّن تدويناً صحيحاً في سجلات السماء، فأية أهمية للباقي؟؟..

فسألته: ألا ترى أهمية في عيشتي بأوراق مزوّرة؟؟..
ألا ترى ذلك مهماً أن أقضي حياتي ببطاقة هوية مزوّرة شأني في ذلك شأن كل المجرمين؟؟..

فصمت والدي محرجاً ومغتماً، لقد كانت تنقصه الشجاعة ليجيب، والسكوت يعني جبانة، ولا يحق للمسيحي أن يكون جباناً، فالجبان لا يمكن أن يكون مسيحياً، لأن المسيحي لا يخاف شيئاً أبداً حتى الموت والاستشهاد ولا شيء يثني عزيمته أو يجعل منه جباناً، ومع ذلك فقد خاف والدي ولم يجب بكلمة واحدة تصرف أمامي مثل رجل جبان، فاحتقرته.

إني أتأسف بمرارة لعاطفة الاحتقار هذه، فالأشياء التي كنت أعاتب والدي عليها، كانت صحيحة، ولكن الحقيقة لا تحصر في حادثة واحدة، فكما أن الإنسان ليس فقط عمراً معيناً، أو وزناً معروفاً، أو لون شعر وعيون محدداً، بل علاوة على هذا كله، إنه شيء آخر أهم من هذا بكثير، وهكذا الحقيقة أيضاً، إنها تعدد أحداث وشيء آخر مهم، وهذه القاعدة لا تخطيء فالأحداث التي كشفتها لي والدتي الخورية، والشيء الآخر الذي يختبئ تحت الأحداث، والذي يكمل الحقيقة، كنت أجهله، لذلك أخطأت في احتقار والدي.

لم يصرح والدي إلى المختارية بولادتي، فجاء رجال الدرك ليوقفوه ويودعوه السجن، عندئذ أعطى لولادتي تاريخاً مغلوطاً، كل هذا صحيحاً لأن الولادة كانت خطراً مخيفاً في وطني، يشكل موتاً للطفل، وأنا لم أعرف ذلك إلا فيما بعد.

رزح شعب بلادي خمسة قرون تحت الاحتلال الإسلامي، وبعد أن احتل الأتراك بلادي عملوا السيف في رقاب السكان، كما يفعل كل الغزاة، ومن ثم نهبوا البلاد، وأحرقوا المدن والقرى وأوقعوا بالشعب خسائر فادحة من ممتلكات وأرواح، مثل كل الفاتحين.

وبعد وقت قصير لاحظ الغزاة أن السكان لم يفنوا كلهم لأنهم كانوا قد اختبئوا أثناء المجازر الرهيبة التي حلت بهم، ثم خرجوا بعدئذ من مخابئهم.

فجمع الأتراك كل الباقين على قيد الحياة، وسألوهم إذا كانوا يحبون أن يغيّروا **ديانتهم**، ووعدوا **المارقين** منهم الخارجين عن المسيحية بمنافع كثيرة وجمة، وأغروهم بوعودهم بأن يصبحوا مواطنين في **الإمبراطورية العثمانية**، ويتمتعوا بامتيازات رعايا الباب العالي.

ثم أفهموا الرومانيين المهزومين أن باستطاعتهم أن يظلوا مسيحيين، كما من قبل، تركوا لهم حرية الاختيار ولكن أفهموهم أنه إذا ظلوا مسيحيين يتوجب عليهم أن يدفعوا **جزية** باهظة وهي أربعة أو خمسة أو عشرة أضعاف.

فرغم فقرهم المدقع وافتقارهم إلى الموارد بسبب الحروب المتتالية والنهب والسلب أجابوا كلهم وبدون استثناء أنهم يفضلون أن يظلوا مسيحيين ما داموا على قيد الحياة ويفضلون الموت والاستشهاد عن اعتناق الإسلام والتخلي عن مسيحيتهم، ووافقوا على دفع **الجزية** مهما ضخمت في سبيل الحفاظ على مسيحيتهم، وإذا لزم الأمر فإنهم يدفعون **الجزية من لحمهم ومن دمهم**.

وبالفعل، لقد دفعوا الضريبة ضعفين وثلاثة أضعاف وعشرة أضعاف عسلاً وحبوباً، وخيلاً، وخرافاً وثمراً، وذهباً، ونحاساً، وفضة، ودفعوا بصورة خاصة ضريبة الدم الرهيبة التي فرضها المحتلون الأتراك لقد أخذ الأتراك الفتيان ليؤلفوا منهم جيش الانكشارية أو ليجعلوهم خصياناً، وأخذوا الفتيات ليضموهم إلى حرمهم، أو لكي يمتعوا بهن الجنود، فجيش الانكشارية القوي الذي تألف عام /1330/ والذي حُلَّ عام /1825/ كان مؤلفاً من فتيان مسيحيين دفعتهم الدول المسيحية فدية للحفاظ على مسيحية أهاليهم.

فكان على كل أم من بلادي أن تدفع في يوم من الأيام ضريبة الدم الرهيبة فتقدم ابنها إلى المحتل.

خضع شعب بلادي لهذه الأساليب طيلة خمسة قرون، بانتظام وبدون أية خيانة، وذلك لكي يظل مسيحياً.

وأنا شاعر بأبناء شعبي، أصرخ اليوم بدالة الأنبياء القاسية، أصرخ إلى السماء من أعماق منفاي:
"**أيها المسيح مخلصنا، إن شعبي قد أحبك، ولم يبخل بشيء في سبيل هذا الحب، فلا تنسه أيها السيد!.. وترأف به**". إن الذين كانوا ينتزعون الأطفال من أحضان أمهاتهم ليرسلوهم إلى القسطنطينية -إلى الباب العالي- كانوا فناريين جشعين مستبدين(نسبة إلى حي الفنار في القسطنطينية الذي كان من اليونان الأتراك الذين قبلوا مناصب دبلوماسية من الباب العالي، وقد كانوا محتقرين من باقي اليونانيين)، لقد كانوا الحكام الذين يوفدهم السلطان إلى الأراضي المحتلة، فكان هؤلاء **الفناريون** أحط وأسفل وأذل وأكره مَن وجد على وجه الأرض.

وكان الأتراك يختارون لهذا العمل الشنيع والمشؤوم حكاماً من أسافل القوم في بيزنطية، كانوا يختارونهم لمدة سنة، أو ستة أو ثلاثة أشهر، فمهنة جمع الثروات والفتيان لصالح الباب العالي من البلدان الرازحة تحت نير الاحتلال كانت تُعرض في المزاد العلني، والذين كانوا يشترون هذه الوظيفة كانوا يُسمون أمراء، أثناء قيامهم بهذه المهنة، لذلك كان أبناء بلادي منذ بداية الاحتلال التركي وحتى زمن أجدادي يكتمون ولادة كل طفل ولد في مولدافيا كانوا يكتمونها لكي يوفروا على المولود، الخصي، والرق، والزنى والموت تماماً كما كانوا يفعلون في زمن سيدنا يسوع المسيح، فكل أم من أمهاتنا كانت تهرب إلى الغابات بمولودها الجديد لكي تخلصه، كما فعلت أم الله سيدتنا المكرمة عندما هربت بابنها إلى مصر لأن قرار هيرودس كان يقضي بقتل كل طفل دون السنتين.

هذا الأمر الذي أعطاه الملاك ليوسف بعد ولادة يسوع المسيح رافق كل الولادات في بلادي خلال أجيال: "**قم واهرب بالطفل وأمه إلى مصر..**" "**وكان يُسمع صراخ وبكاء وعويل ونحيب ..**" وفيما بعد وجدت في أهراء جدتي الخورية "**ماريا سكوباي**" في رعية **بيلابيا** أكياساً غريبة، فشرحوا لي أنهم كانوا يربطون هذه الأكياس على ظهور الخيل ويخبئون فيها الأطفال ويهربون بهم إلى الجبال.

وبفضل هذه الأكياس نجت جدتي عدة مرات من الأسر، ولهذا السبب كانت تحتفظ بها، وتوجد أسباب أخرى للاحتفاظ بها، إنها نفس الأسباب التي كانت تفرض عليهم أن يحتفظوا بالأجراس الخشبية بجانب الأجراس المعدنية في قباب الكنائس، فخبرة آلاف السنين علمتهم أن أزمنة الشؤم والغزوات والاضطهادات هي دائمة الحدوث، ما زال **شعب المولداف** أحياء، فلا يصبحون في مأمن من هذه الأمور كلها ولا يستغنون عن الأكياس لينجوا بأطفالهم على ظهور الخيل ولا يستغنون عن الأجراس الخشبية إلا عندما يصبحون فوق في السماء وطنهم الحقيقي، ولكنهم يعرفون أنهم ما داموا على هذه الأرض فهم بحاجة إلى كل هذه الأشياء لأنهم معرضون دائماً لأن يُطلب منهم كل يوم أن يدفعوا ضريبة الأطفال، وأن يسلموا أجراس كنائسهم ليصنع منها أسلحة، إن الخطر على أجدادي ومعاصريهم لم يكن لينتهي بنهاية طفولتهم، بل كان يلاحقهم حتى الموت، كانوا يعيشون في خطر دائم، يرافقهم في كل دقائق حياتـــهم، خطر الرق والموت، فالسلطات الشرعية ورجالها -المنظمون والذين وصفهم سلفي الأكبر الشاعر **بانيت استراتي** أدق وصف- كانوا يظهرون دائماً في ساحات المدن والقرى حيث تقام الأسواق العامة، فيلاحقون الصبايا والشباب والمراهقين ويطاردونهم ويحاصرونهم، ويقبضون عليهم بواسطة أشباك تشبه الأشباك التي يلقون بها القبض على الحيوانات في مراعي أميركا اللاتينية.

لما ولدت أنا، كانت الأقلية المستغلة والحكام الفناريون والأمراء جباة الأطفال واللحم الحي للباب العالي قد بدلوا أزياءهم التركية وتخلوا عن العمامة والقفطان واستبدلوها بأزياء باريسية ولندنية، وتخلى أمراؤنا عن لقب "**بيك**" و"**باشا**" وأصبحوا يلقبون أنفسهم "**معالي الوزير**" و"**سعادة السفير**" و"**حضرة المدير العام**" أو "**حضرة النائب**"، ولكنهم هم أنفسهم لم يتغيروا إلا بالاسم فقط، لقد أبطلوا جباية الأطفال للباب العالي بتجارات أخرى لأسياد أُخر.

وإذا كانوا قد أوقفوا -مؤقتاً- انتزاع الأطفال الرضع من أحضان أمهاتهم، فالخوف -بين الشعب المسيحي التعيس- في إعلان الولادات والتصريح بالأولاد للسلطة كان لا يزال قائماً.

وبسبب هذا الخوف وهذه العادة، كتم والدي على السلطة نبأ ولادتي، ولم يبح بها إلا عندما جاء رجال الدرك إلى دار الخورنة بحرابهم وأغلالهم لكي يعتقلوه، وكانت تُعطى مهلة قانونية قصوى للتصريح بالولادات، وحتى لا تخلو الرعية من كاهن، وحتى لا يساق والدي إلى السجن، تجمع المؤمنون على قبور الموتى أمام الكنيسة، ورفعوا إلى رجال الدرك توسلات وتضرعات فقبل رجال الدرك أنني ولدت في الخامس عشر من أيلول، فهذا التاريخ كان اليوم الأخير من المهلة القانونية المحددة للتصريح بالولادات.

فسُجلتْ ولادتي بهذا التاريخ، وذلك لكي أظل ضمن الشرعية، ولكي لا تجر القضية ذيولاً ولا يساق والدي الشاب النحيل إلى السجن مقيداً مخفوراً.

لقد كانت والدتي الخورية على حق، أني ولدت يوم عيد القديسين **يواكيم وحنة**، في التاسع من أيلول.

لما عرفت هذه الأشياء ذهبت إلى والدي وركعت أمامه استغفره، مشفقاً على نفسي وعلى شعبي.

الكاهن الحافي القدمين

والبرولتاريا الكهنوتية

في نفس الفترة اكتشفت حقيقة أخرى رهيبة، والدي الوقور الذي كنت أحبه حباً جماً، كان جد فقير، ولا يتصور إنسان في العالم مثل هذا الفقر، إنه يحاكي فقر الثعالب، والذئاب والسناجب التي لا تملك إلا جسدها ومأوىً زرياً تُطرد منه غالباً، وكان لي خمسة إخوة وأخوات، كنا ستة أولاد في البيت.

ولكننا لم نملك مرة ستة أزواج أحذية ولا ستة معاطف، ولا ست قبعات، كنا نستخدم كلنا معطفاً واحداً وقبعة أو اثنين، فلم يكن بإمكاننا نحن الاخوة الستة، أن نخرج سوية من حرم الكنيسة المقدس، أو من دار الخورنة لأننا ما كنا نملك ألبسة كافية لكل واحد منا، فكنا نخرج من المنزل بالتعاقب ولم نخرج مرة سوية.

وبسبب البؤس عرفنا في دار الخورنة فترات ألم رهيب ومبرح، كنا نعيش البؤس في كل أبعاده حتى العظم وحتى مخ العظام، ولكن في ساعات الجوع والبرد والحزن الرهيبة، كان يكفينا نحن التعساء أن نخرج من دار الخورنة ونجتاز ممشى المقابر وندخل الكنيسة المقدسة، إلى السماء المشيدة على الأرض، لنتذكر أننا أبناء الله وأننا ننتمي إلى السلالة الإلهية -لأننا مسيحيون- وأن الشقاء الأرضي ليس بذي أهمية، حتى وإن متنا جوعا" فنحن خالدون ...

ولكي لا نتضايق نحن الصغار من بؤسنا ومن عوزنا ومن جوعنا، ولكي لا نصاب بعقدة نقص تجاه الأولاد الآخرين الذين كانوا يأكلون على جوعهم ويملكون قبعات وأحذية ومعاطف، ولكي نحافظ على رقة قلوبنا وعلى طيبتنا وصفائنا في آلامنا الرهيبة وفي فقرنا المدقع، كانت أمي الخورية الوقورة_ الشاعرة_ تقرأ علينا كل يوم قصة **أيوب**، فكان ذلك دواءً ناجعاً وسريع الفعالية في كل أنواع البؤس والآلام.

في كل أنواع آلامنا كانت تقرأ علينا قصة **أيوب**، مرتين أو ثلاث أو خمس مرات في النهار، وكانت تكرر ذلك كل يوم، وهكذا كان **أيوب** يتألم معنا ونحن نقاسمه آلامه، فكنا نقارن آلامنا بآلام هذا الرجل القديس، وكنا نعرفه أكثر مما نعرف أي كائن آخر في السماء وعلى الأرض، لقد سكن **أيوب** معنا في دار الخورنة طيلة الوقت، وكان عضواً من عائلتنا، فنحن آويناه وهو كان يقيم معنا، لأنه كان مثلنا ونحن كنا من أهله، كان من دمنا دم الذين يمتحنون بكل آلام الأرض، وبسبب هذه المساكنة فإني لا أزال حتى اليوم أتهلل وأفرح كلما سمعت اسم **أيوب** ، أو كلما قرأت اسمه مكتوباً في مكان ما، كأنني أسمع اسم اخوتي أو أخي أو أحد أقربائي الآتين من بلدتي..

في العاشرة من عمري عرفت أنني لا أستطيع الدخول إلى **المدرسة الاكليريكية**، كان ذلك صدمة من أعنف ما صادفت في حياتي، لم أفكر لحظة واحدة -حتى في الحلم- أنني سأعمل شيئاً آخر غير خادم الله، مثل والدي وجدي ووالد جدي وكل أجدادي الأقدمين في غابر العصور، فمنذ أجيال وخلال عصور كان أجدادي لأمي وأبي خداماً في السماء، كانوا **كهنة**، كهنة في القرى الجبلية الفقيرة من مقاطعة **بيتروداڤا** في ضاحية **أوروبا** على المنحدر الشرقي **لجبال الكاربات**، والكهنوت عندنا هو وراثة أب عن جد كما في قبيلة **اللاويين** إنهم يعلمون الأولاد خدمة الأسرار قبل أن يعلموهم الحروف الأبجدية وهكذا علموني أنا، وهكذا كانت تحصل الأشياء، كنا نولد كهنة كما يولد الملوك ملوكاً، وذلك لأننا كنا نولد في الحرم المقدس في دار الخورنة، ولما قرأت فيما بعد **العهد القديم** في الكتاب المقدس رأيت لأن **النبي موسى** كرّس أخاه **هارون** بوضع اليد، ولا نعثر في العهد القديم على سيامة أخرى غير هذه فلكي يصبح واحدنا كاهناً كان يكفي أن يثبت بنوته، وعند موت الكاهن كانوا يكتفون بأن يُلبسوا الابن ثياب الكاهن المتوفي كما حصل عند موت **هارون**.

في مدرسة القرية، لم يحلف رفاقي مرة بحضوري ولم يكذبوا، مع أنني لم أكن أكبرهم سناً، ولكنهم كانوا يعيشون أمامي كما لو كنت كاهنهم، كانوا يعرفون أنني سأصبح كاهناً يوماً ما، كاهنهم، كانوا يعرفون أنني سأبارك زواجهم وسأعمد أطفالهم، سأقطع عشرات الأميال سيراً على الأقدام في الليالي المظلمة وفي الثلج ووسط العواصف وتحت الأمطار الغزيرة والوحول لكي أصلي على مرضاهم وعلى موتاهم، كانوا يعرفون أنني أنا الذي سيركض إليهم قبل أمهاتهم وقبل اخوتهم وأخواتهم، في أية ساعة من الليل والنهار لكي أحمل التعزية والقربان إلى مَن هم على وشك أن يغادروا الأرض إلى جوار ربهم، كانوا يعرفون أنني أنا الذي سيدفن آبائهم وأمهاتهم وسيصلي لراحة نفوسهم، وهكذا كان رفاقي مؤدبي الأول، لأنهم كانوا يتمنون ألا أعمل إلا ما يليق بالكاهن -بكاهنهم- وأن امتنع عن كل ما يشين الكاهن، فكل يوم كنت أسمع أولاداً يزجرون رفاقهم قائلين: "لا يليق بك أن تسأل **فيرجيل** هذا السؤال، إنه سيصبح كاهناً، سيصبح كاهننا"، وإذا قرروا أن يلعبوا ألعاباً عنيفة أو أكثر حرية (من الألعاب العادية) ولا تليق إلا بالعلمانيين انفردوا بها وحدهم وانفصلوا عني، يريدون كاهنهم أن يكون كاملاً، يطلبون مني أن أكون الكاهن الذي يحلمون به عندما يصبحون رجالاً وفجأة علمت أنني لن أرسل إلى المدرسة الاكليريكية.

كنت الوحيد الفريد بين أترابي الذي يوقف بعد أجيال سلسلة الكهنوت المقدسة وقع النبأ عليَّ كوقع البلايا على أيوب، ولكني قلت إن الله يرفضني لأن "**ليس كاهنا" من يشاء، بل مَن يدعوه الله**".

أجل، كنا في العائلة كهنة أباً عن جد، منذ أربعة أو خمسة قرون، وبدون انقطاع، وذلك لأن الله كان يختار الكهنة من عائلتنا، ولكن من وقت لآخر كان الله يرفض أن يأخذ لنفسه كاهناً من عائلتنا، وذاك الذي رفضه الله مرة، كان قد سقط عن ظهر الحصان فكسر عظماً من عظامه، فعرف أن الله لا يرضى به كاهناً، لأن من يكسر له عظم -مهما كان صغيراً- لا يستحق أن يكون كاهناً، ومن حين لآخر كان يولد في عائلتنا مَن واحدة من رجليه تطول عن الأخرى، أو مَن يحمل بقعة نمش على جلده، أو مَن في شعره خصلة بيضاء، فكانوا يعرفون أنهم مرفوضون في الكهنوت، كان الله يرفض أن يأخذهم كهنة له.

أنا الآن أُحصى بين المبعدين عن الكهنوت، بسبب الفقر كان والدي فقيراً لدرجة أنه كان يعجز عن دفع التكاليف في المدرسة الاكليريكية، ففي العاشرة من عمري أُرسلتُ -والحزن يحز في نفسي- إلى معهد للحربية الروسية في **كيشينيف**، ففي المعاهد الحربية كان التلاميذ يأكلون، ويلبسون، ويحصلون على العناية مجاناً، شريطة أن يصبحوا ضباطاً.

فكان ذلك مأساة كبيرة بالنسبة لي، إذ أن الكنيسة هي عالم طفولتي، لم أكن معتاداً إلا على الأمور السماوية، فكنت أجهل كل ما هو دنيوي، فانفصالي عن الكنيسة كان بمثابة إرسالي إلى كوكب آخر أعيش فيه، فعانيت هكذا -حرفياً- الطرد من الجنة، لأنني كنت قد سقطت من السماء إلى الأرض، وخبرت في نفسي وفي جسدي مأساة الإنسان الأول الذي طرد هو أيضاً من السماء ونفي إلى الأرض.

لقد طردت من السماء المشيدة على الأرض، من المكان المقدس، من الكنيسة، ونفيت إلى ثكنة للأولاد في عالم دنيوي وعسكري، حدث ذلك وأنا في العاشرة من عمري، فعشت بعدئذ على الأرض، بالطبع لم يكن بوسعي أن أرجع إلى السماء، ولكني كنت أحن إليها، وأحلم بها ليلاً ونهاراً فكنت أعيش في عالم أُلغيت منه الأبدية، وحل محلها زمن التعاسة والشقاء، زمن يُقاس بصوت البوق، والصفارة، واللكمات والشتائم، ولم يكن بمقدوري أن أُفلت منه فإذا تركت ثكنة الأولاد أفقد كل محل آخر على الأرض، لأنه لا يوجد ثمة مكان آخر مجاني، ودفع الراتب كان مستحيلاً، لأنني لم أعرف إطلاقاً رجلاً بروليتارياً أكثر فقراً، وأكثر بروليتارية، من ذاك البروليتاري الكنسي، والدي اللطيف، الموقر، **قسطنطين جورجيو** .

ما كان يملك شيئاً على الأرض، على كل حال، لم يكن والدي يسكن على الأرض، بحصر المعنى، لأن نطاق رعيته كان يتعدى الأرض، لقد كانت رعيته كومة من الحجارة الضخمة، والصخور والحصى التي جرفها السيل من الجبال.

والناس كانوا يشتغلون في الغابات بعيداً جداً عن القرية، كانوا حطابين، لأن العمل في القرية لم يكن متوفراً.

ووالدي لم يكن يملك أرضاً ولا بساتين ولا حيوانات ولا بيوتاً، لم يكن يملك شيئاً قط، كان يتقاضى من وقت لآخر راتباً من الدولة، لأن الكهنة كانوا موظفي دولة مثل معلمي المدارس، والدولة نوع من مزرعة خاصة للأقلية الحاكمة، للحكام الفناريين، تدفع للكهنة ولمعلمي المدارس ساعة يروق لها، وإذا راق لها، والأجور لم تكن ثابتة، إنما تأتي في فترات متقطعة، فكان ينقضي عادة خمسة أو عشرة أو اربعة عشر أو عشرون شهراً بدون أن يتقاضوا أي راتب.

اربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين ليلاً ونهاراً وفي كل الفصول، كان والدي يركض بقاماه الطويلة النحيلة الضعيفة وبثوبه الذي فقد لونه الاسود واصبح بلون الحديد المصدأ بفعل الشمس والرياح وهو يخفق كالعلم الاسود او جنائحة رؤساء الملائكة حول جسده النحيل المجرد، يركض وهو يحتذي جزمته الضخمة ذات المسامير كجزمة متسلقي الجبال وبحدوتها كحدوة الحصان.

وعندما كتن يدخل الى الحرم المقدس كان يخلعها حتى لا يتلفها بدون فائدة ويمشي على الأرض وهو حافي القدمين، كان يحتفظ بثوبه ويمشي حافياً، وكنت أعرف أنه كان يفعل ذلك بسبب فقره المدقع، ولكن هذا

الكاهن البروليتاري الذي يحتفظ دائماً بثوبه ويمشي حافياً في حرم الكنيسة كان في ذات الوقت والدي وكان يشبه الملائكة، لأن الملائكة والشيروبيم هم حفاة الأقدام أيضاً، فبسبب فقره وعوزه كان يشبه إلى حد بعيد أسقفه الأوحد يسوع المسيح الذي كان يمشي أيضاً حافي القدمين، وهو على كل حال كان ذاك الكاهن البروليتاري يشبه أيضاً كهنة العهد القديم الذين يدخلون إلى قدس الأقداس وهم حفاة، ولم يقوموا بالخدمة مرة وهم محتذون أنعالهم وقد كتب أحد الحاخامين فيما بعد أن الكهنة كانوا يصابون بمرض في المعدة خاص بهم لأنهم كانوا يمشون حفاة، وهكذا بسبب فقرهم، كان والدي أشبه بلملائكة منه بكهنة الأرض، فالأحذية والأرجل كانت تلعب دوراً مهماً في حياة والدي، إذ كان يتوجب عليه أن يقطع يومياً مسافة ثلاثين كيلومتراً حيث تتوزع منازل أبنائه وبناته، وكان عليه أن يصارع جسماً لجسم عواصف الثلوج، وزخات المطر والرياح، والسيول، ومجاري المياه، والصخور.

فالطرقات معدومة، والدروب صعبة السلوك غالباً بسبب الثلوج والفيضانات ورداءة الطقس، كانوا يأتون على الحصان ليأخذوه من المنزل من أجل مريض أو جريح أو منازع او ولادة ، فالكاهن هو أب الجميع في بلدتنا، إنه ملزم لأن يهتم بكل شيء وبالجميع، فلا شيء يفلت من مسؤولية الكاهن، الأب، إنه طبيب المرضى، ومرشد الضالين، وقاضي المتخاصمين، وحكم المتنازعين ومعزي الحزانى، وحامي الضعفاء ومناهض الظالمين... إنه كل شيء، الناس يهرعون إلى الكاهن في كل القضايا التي تلامس حياتهم، فإذا مرض حصان، أو أصيب الكلاب بداء الكلب، أو عقمت البقر، أو انحسر المطر، أو أتلفت الفيضانات المحاصيل... كان الناس يهرعون إلى أبيهم الكاهن يستنجدون به.

وعندما كان يفد إلينا وافد على حصانه كنا نعلم أن شيئاً ما قد حصل، وفوراً كان كل نشاط يتوقف في دارنا ويخيم الترقب والقلق والصمت على الجميع، فإذا وصل ونحن على المائدة كنا نلقي الملاعق من أيدينا ونتوقف عن تناول الطعام، فتشحب وجوه الأطفال وهو محدقين بما سيحصل.

وكانت أمي تنهض وهي راسمة إشارة الصليب على وجهها والكل في وجوم وبلا حركة غير والدي الذي كان يستعد للرحيل، وقبل ان يصل الينا راكب الحصان ليقرع الباب يكون والدي قد استعد للرحيل وبسرعة كان يجهز كيسه الذي يضع فيه كتاب الصلوات، وصليباً خشبياً، والقربان المقدس، وملعقة المناولة التي كانت دائماً مثار دهشتي، فهي من الفضة ودائمة اللمعان وقد تلف طرفها من كثرة الاستعمال مع أنها لم تستخدم إلا للمناولة، فكانت توضع على شفتي المؤمن مع قليل من الخبز والخمر اللذين هما جسد المسيح ودمه، وإني لا أزال أتساءل حتى اليوم، **إلى كم من الشفاه قد حملت هذه الملعقة جسد الرب ودمه المقدسين حتى تلفت هكذا؟؟..**

إنها تلامس فم المؤمن ملامسة، ثم تمسح بقطعة من الحرير الأحمر الناعم، لقد قدمت حتماً عدداً لا يحصى من المناولات لكي تتلف من هذه الملامسة الناعمة كملامسة الريشة، لقد استخدمها للمناولة كل كهنة العائلة طيلة أجيال وأجيال، وأتصور أنها أتتنا من المسيحيين الأولين... وكنت أرتعش عندما كنت أفكر أنني أنا أيضاً سأوزع بواسطتها جسد المسيح ودمه المقدسين.

فكتاب الصلوات، وعلبة القربان، والملعقة، كانت كلها ملفوفة بالبطرشيل وموضوعة في قعر الكيس، والبطرشيل هو الزينة الأولى التي تدل على رتبة الكهنوت وسلطانه، ونعمته حيث أنها تعني حرفياً "**العنق**" أو "**حول العنق**" وأصل اللفظة يعني "**العنق**"، وهي شريط من قماش الكتان أو الحرير عرضها من ستة إلى عشرة سنتمترات يضعها الكاهن حول عنقه وتتدلى من الأمام إلى ما تحت الركبتين، وهذان الطرفان المتدليان من الأمام تربطهما أزرار أو بُكل أو خياطة ويوشيهما سبع صلبان وصور قديسين، وينتهيان بأهداب **والبطرشيل يرمز أول ما يرمز إلى نير المسيح الذي يتوجب على كل كاهن أن يحمله على هذه الأرض.** فلهذا السبب يتوجب على الكاهن أن يضع البطرشيل حول عنقه في كل رتبة كهنوتية مهما كانت، **والأهداب ترمز إلى نفوس المؤمنين**، كما في العهد القديم تماماً.

فالبطرشيل يرمز إذاً إلى نير المسيح، ولكنه **يرمز أيضاً إلى النعمة التي يسبغها المسيح على الكاهن وإلى سلطان الروح القدس، سلطات الكهنوت.**

ولكي يتذكر الكاهن هذه النعمة وهذا السلطان اللذين أعطيهما من علو، فإنه يردد هذه الصلاة وهو يضع البطرشيل حول عنقه:

"تبارك الله الذي يسكب نعمته على خائفيه، كما يسكب الطيب على رأس هرون ولحيته وأهداب ثوبه".

وطرفا البطرشيل يرمزان أيضاً إلى الحبل الذي لف به عنق المسيح، وفي تدليهما من الأمام، طرف اليسار يمثل الصليب الذي حمله المسيح، والطرف اليمين يمثل القصبة التي أعطيها المسيح في يده وهو على طريق الجلجلة.

فلا يمكن إذاً أن يقوم الكاهن بالخدمة ما لم يضع نير الكهنوت حول عنقه، فالكاهن في السجن أو في مخيم الاعتقال مجرد من كل شيء، عليه أن يحصل على بطرشيل، على نير، قبل أن يقيم الذبيحة، عليه أن **يمزق قطعة من ثوبه أو قميصه ويعمل منها شريطاً يباركه ويضعه على عنقه بمثابة بطرشيل، وإذا تعذر عليه الأمر فعليه أن يستخدم حبلا" بمثابة بطرشيل**. وهذا الشريط يصلح لأن يستخدم كأنه حلة كهنوتية.

خلال العصور السالفة أضطر أجدادي أن يقضوا مع أبناء رعاياهم قسطاً كبيراً من حياتهم لاجئين بين الصخور في الغابات، وبين سلاسل الجبال الوعرة، هرباً من الغزاة القادمين من الشرق، وهناك قريباً من السماء لم يكن في متناول أيديهم إلا **رسن الأحصنة يضونه حول أعناقهم بمثابة بذلة كهنوتية في رتب العماد، والمناولة، والدفن**. فالرسن كان بذلتهم الكهنوتية الوحيدة، والملائكة، خدام أسرار الكنيسة، كانوا ينظرون من عليائهم ولم يتشككوا ولم يهزؤوا بهم، بل كانوا يحبسون الدمعة عند رؤية هؤلاء الكهنة البروليتاريين وهم حفاة الأقدام في الجبال، شبه عراة وهم يستخدمون أرسنة حيواناتهم بدلاً من البذلات الكهنوتية.

وبعد الحرب العالمية الثانية، ألوف الألوف من كهنة بلادي وعائلتي قد شنقوا في قراهم، لم يضطروا لأن يفتشوا على حبل يستخدمونه بمثابة بطرشيل في صلواتهم الأخيرة قبل الممات، حيث الجلادون كانوا يضعون لهم البطرشيل الذي اعتادوا عليه في أعناقهم وهو الحبل والبذلة الكهنوتية في ذات الوقت، **فالموت هو ترفيع للكاهن، به يترك الكنيسة الرضية التي هي نسخة عن الكنيسة السماوية لينتقل إلى الكاتدرائية الكونية الكبيرة حيث يقيم الذبيحة الالهية بجانب اسقفه الأوحد الرب يسوع المسيح.**

والدي حصان المسيح

في جوعه ، وهمومه ، وأتعابه

كل مرة أفكر بوالدي، أراه والنير حول كتفه، مكدوناً تحت البطرشيل أراه مكدوناً مثل حصان يسوع المسيح، ومحتذياً جزمته "**المحدية**" ويطوف رعيته من طرفها إلى طرفها الآخر، ثلاثون كيلو متراً من الجبال يجتازها مرتين أحياناً في النهار الواحد، أراه متعباً دائماً وعلى وشك الانهيار من التعب شأنه في ذلك شأن كل خليقة تكدن للعمل ولا تتوقف أبداً.

كان والدي ينطلق إذن مع المسيحي الذي يأتي في طلبه دون إبطاء، فكان يخرج من دارنا قبل أن يقرع الوافد الباب، لأن الحاجة كانت دائماً ملحة، كائن بشري ينتظر الرجل الوافد وفور خروجه من الحرم المقدس كان الغريب يمتطي حصانه ووالدي يمشي خلفه على الأقدام.

في جبالنا لا يركب الكاهن حصاناً إطلاقاً، هذا تقليد، كان والدي يمشي وراء الخيال حاملاً كيسه الذي يحوي جسد المسيح ودمه المقدسين والصليب و "**النير**" ورغم ضعفه وهزاله كان يمشي كالحصان وراء راكب الحصان، يتعقب الحصان خطوة خطوة بجزمته "**المحدية**" ولا يدع الخيال يسبقه.

أحياناً كان يقول لي ولأخوتي وهو يبتسم:

"أنا حصان يسوع المسيح، يمتطيني الله كما يمتطي حصاناً"

وكان ذلك القول صحيحاً، فالكلام لم يكن للتسلية والضحك، كما كنا نفهمه في صغرنا فوالدي كان يحمل جسد الرب ودمه كما يحمل الحصان خياله، ويذهب به إلى كل مكان ليلاً ونهاراً، فكان الله يمتطي كتفي والدي طيلة الوقت حتى إلى قلب غابات التنوب السود، وإلى قلب الجبال الوعرة الصامتة.

فعندما كنت أرى والدي منهوكاً من التعب كنت أقول له:
"إن أبناءك وبناتك في المسيح لا يحبونك، فما أن ترجع إلى الدار حتى يطلبونك من جديد وما أن تنام حتى يوقظونك، إنهم يستدعونك في أسوأ الظروف الجوية ويتركونك تمشي على قدميك ساعات وساعات طويلة خلفهم وهم يركبون الأحصنة، إنهم يجرونك في الجبال وراءهم بدون توقف، في الليالي الحالكة وتحت الأمطار، في الأوحال والثلوج، إن مؤمنيك يحبون أحصنتهم أكثر منك، إذ أنهم لا يطلبون من دوابهم ما يطلبون من أبيهم، وكاهنهم، فلِمَ لا يشفقون عليك إطلاقاً؟؟.. لِمَ لا يوفرونك؟؟..".

فكان والدي يجيب :
"إنهم يوفرون الأشخاص، والحيوانات، والأشياء، أما الكاهن فلا يوفرونه".
إنه لمن الغباوة والمحال والكفر أن يوفروا الكاهن، **فالمسيحي عندما يقرع باب الكاهن فإنه يقرع باب الله، لأن الكاهن "يشبه ابن الله" ولا يخطر ببال المسيحي أبداً أن الله يتعب أو ينعس أو يجوع أو يصاب بألم في رجليه، إن هذا لكفر، إذ أنه بإمكانهم أن يطلبوا من الله كل شيء وفي كل حين، وبدون أن يقرعوا بابه".**

فكنت أقول له: "فمهما يكن الأمر فالكاهن يظل إنساناً"
فيجيبني:
"كلا.. ليس الكاهن إنساناً، إنه ذبيحة إنسان، تتحد بذبيحة الله، هذا هو الكهنوت".

كان الجواب جميلاً رائعاً حتى أن وجنتيَّ توردتا من الفرح، ولكنني استطردت قائلا:
"على كل حال عليك أن تأخذ قسطاً من الراحة".
فأجاب:
"كلا.. فالكاهن ليس كالفلاح أو الموظف أو الحرفي، لا يكفي أن **يؤمّن عدد ساعات خدمة في المكتب مع استراحات وعطل صيفية، الكاهن هو كاهن مداوم بدون توقف ولا راحة ولا انقطاع، لا نهاراً ولا ليلاً وكما أن التوجه إلى الله وارد في أي وقت وفي أية ساعة من الليل والنهار ولأي مطلب وبدون أي خوف من إزعاجه، كذلك يكون التوجه إلى الكاهن في أي وقت ولأي سبب، بالطبع لن يكون لنا كهنة لا ينامون ولا يأكلون، ولا يصابون بألم في أرجلهم، وهذا نقص يجب أن نقبله، فالرتب الدينية ليست إلا صورة، ليست إلا ظلاً للحقائق السماوية، كما أحي إلى موسى عندما أراد أن يبني الخيمة، لقد قيل له: انظر واعمل كل شيء على صورة ما رأيت على الجبل.**

فالكهنوت الذي هو محاكاة لكهنوت المسيح يرفض التوقف، إنه مستمر وأبدي حتى أن **موت الكاهن الجسدي لا يبطله**، وبما أن الموت لا يبطل الكهنوت أو يوقفه فكيف تريد أن يوقفه الجوع أو التعب أو النعاس؟؟.."
لما سمعت ذلك لأول مرة سألت والدي:
"إذن يظل الكاهن كاهنا" حتى بعد الموت؟؟.."

فقال: **"الكاهن يظل كاهناً إلى الأبد"**، ربما أن الكاهن يشبه الله، فلا يمكنه أن يموت، إنه يظل كاهناً بعد الموت ورغم الموت، وإلى الأبد، ولذلك يودع الكاهن في القبر ويدفن مع الحلة الكهنوتية التي يلبسها أثناء الذبيحة الإلهية، إنه يدفن بها كاملة، والحلة الكهنوتية التي يلبسها أثناء الاحتفالات الرسمية لأنه سيحتفل بالذبيحة في الكنيسة الحقيقية مع المسيح اسقفه، وموت الكاهن الجسدي هو ترقية من كنيسته الأرضية الصغيرة إلى الكاتدرائية السماوية، **لكي يحتفل بالذبيحة الكونية بجانب المسيح**، لذلك لا يصح أن يُبكى الكاهن ساعة موته، لأنه لا يموت، **فالموت هو ترقية كنسية له.**

وبما أن الكاهن يظل كاهناً رغم الموت الجسدي، لذلك عندما يودعونه القبر بحلته الكهنوتية يغطون وجهه بمنديل المناولة الذي يغطون به الكأس الذي يحوي جسد الرب ودمه المقدسين أثناء الذبيحة الإلهية، والوشاح المقدس يرمز إلى الحجر الذي وضع على باب قبر المسيح، فالحجر الذي غطى باب قبر المسيح يختم قبر كل كاهن ، لأن كل كاهن يشبه "ابن الله".

وفيما أنا أصغي إلى والدي تركت دموعي تتساقط على يده التي قبلتها بخشوع، وعندئذ فهمت لماذا كان **القديس فرنسيس الأسيزي** يقول:

"إذا التقى كاهناً وملاكاً يسيران معاً، فإنه يركع أمام الكاهن أولاً ويقبل يده، ثم بعد ذلك يركع أمام الملاك ويحييه، لأن الملائكة لا يقدرون أن يحولوا الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه المقدسين، بينما يدا الكاهن تستطيعان..".

رغم سمو سعادته في أن يكون خادماً في السماء، كانت حياة والدي الأرضية غاية في القساوة والألم فكان يزيد هزالاً سنة بعد سنة، كان نحيلاً لا مادياً، ابيض الشعر وهو في سن الثلاثين من عمره، لقد شاخ في سن الثلاثين وبدأت أسنانه تتساقط بسبب بؤسه وسوء تغذيته وتعبه.

أما نظره فكان يزيد جمالاً وإشراقاً، سنة بعد سنة، حتى أن وجهه كان يبدو وكأنه مضاء بهالة من نور، فكنت أشهد أحداثاً لا تصدق، كان إذا نظر إلى شيء أناره ببصره، وفيما أنا ألاحظ ذلك أدركت للمرة الأولى أن القديسين ينيرون العالم ويقدسونه عندما ينظرون إليه.

وإذ رآني والدي أتأمله سألني: "بمَ تحدق؟؟.."

فقلت له وقد علا الاحمرار وجنتيَّ: "إنك تشع كالأيقونة".

فابتسم، ولم يكن والدي متكبراً ولا متواضعاً، إذ أن التكبر والتواضع يشترطان في الإنسان أن يكون ارضياً، ووالدي كان يتروحن يوماً بعد يوم، ابتسم لأن أذنيه التقت بصوتي فأسره ذلك، ونادراً ما كان والدي يبتسم، فالمنهوك من التعب لا يستطيع أن يبتسم، ولكنه ابتسم آنذاك وعندما كان يبتسم كنا نلاحظ أنه فقد كل أسنانه تقريباً، فكان هذا المنظر يحدث في صدري انقباضاً، وكنت اضبط دموعي بجهد كبير، وكنت أقول في نفسي: لو حدثت أعجوبة وقرر سيدنا يسوع المسيح أن يوفر لكاهنه وحصانه الأب **قسطنطين جورجيو** الذي تألم طيلة حياته من الجوع أن يوفرله إمكانية الحصول فوراً على خبز على مائدته، لكان والدي البروليتاري الوقور يفضل أن يظل جائعاً، ويعاني من الجوع كما كان في السابق، لأنه وإن توفرله ما يأكل فإنه لا يستطيع بسبب فقد أسنانه.. وتركيب أسنان جديدة لم يكن موضوع بحث، لقد كنا فقراء لدرجة أنه ما كان يحق لنا أن نحلم بالذهاب لمعاينة طبيب أسنان.

والدي الوقور هرطوقي

انتهك حرمة المقابر فمنع من ممارسة الأسرار

بعد سنواتي العشرين بقليل أصبحت شاعراً وكنت أتحدث من الراديو وأكتب في كبرى الصحف والمجلات، وقد وضعت كتباً نالت الجوائز الكبرى فكان شعراء بلادي الكبار يقرظونني ويعلقون آمالاً كبيرة على مواهبي الشعرية، ولكنني ما كنت اكسب من المال ما يكفي لأنجد والدي في حين كانت مساعدته أمراً ملحاً جداً، وكان والدي فخوراً بي وكان يعرف أن عظمة الرجل على الأرض تبدأ مع القديسين والشعراء والفلاسفة ولم يكن هناك من فاصل بين الكنيسة الأرثوذكسية والشعر والصلاة، فهدف الاثنين هو الجميل والسامي والإلهي والتناسق والجمال هما قانونهما وبواسطتهما يتحد الإنسان بالكون وبالخالق، والخلاصة اللاهوتية في الكنيسة الأرثوذكسية تسمى "**حب الجميل**" فالجميل والإلهي هما شيء واحد لأن الإلهي جميل والجميل إلهي، رجل قديس راهب هو "**عاشق الجمال**" لأن الله هو الجمال الأسمى، فالرهبان والنساك والزهاد والقديسون يدعون "**الشيوخ الجميلون**" وفي اليونانية يدعون "**جميلو الشيخوخة**"، والشاعر والرسام والفنان لا يرتاحون في مكان آخر كما يرتاحون في الكنيسة، وفي الإيمان الأرثوذكسي.

وبصفتي شاعراً كنت أقرب إلى الله من الآخرين، فالشاعر هو أقرب إنسان إلى الله بعد الكاهن، وأحد كبار الكرادلة الكاثوليك في العصر الماضي وهو **الكاردينال باترا** كتب يقول:

"إن الكنيسة الأرثوذكسية هي أكثر ذكاءً وكرماً من أفلاطون الذي يكلل الشاعر ليقوده خارج الحدود وينفيه، لقد فتحت له هياكلها وأعطته مركز الصدارة في معابدها، واقترضت ألحانه لتملأ ساعات الليل والنهار الطويلة بالصلوات الشرقية، ولم تلقَ الكنيسة في أي مكان آخر تكريماً كالذي لاقته في وطن هوميروس، عند الأرثوذكس".

شعراء كبار ورسامون عظام وموسيقيون مشهورون وخطباء مفوهون رُفعوا إلى مصاف القديسين، من أمثال: **القديس رومانوس المرنم والقديس يوسف المنشد، والقديس نارساس اللطيف، والقديس اندراوس الكريتي، والقديس افرام السرياني، والقديس يوحنا ذهبي الفم والقديس يوحنا الدمشقي.**

ورسامون أيضا" مثل: **القديس اندراوس روبلاف** أشهر الرسامين الروس فالشعر هو كالصلاة سلم يرتقى به إلى السماء، وكان والدي فخوراً بي، والأسف لم أكن قد أصبحت كاهناً بعد ولكني كنت شاعراً وكنت أعد الثاني بعد الكاهن على السلم الذي يقود إلى السماء.

وصل والدي ذات يوم إلى العاصمة، فكان وصوله مفاجأة لي، إذ لم يكن يأتي إلى العاصمة إلا في الخريف قبل بدء العام الدراسي فقط، ليأخذ سلفة على راتبه من وزارة الأوقاف ليتسنى له أن رسل أخي وأختي إلى المدرسة، ويشتري لهما الكتب والأحذية.

يومها لم يكن قد حل الخريف بعد ومع ذلك جاء والدي إلى العاصمة فقفذت إلى رأسي فكرة بأن شيئاً خطيراً جداً وطارئاً قد حدث.

حوالي الساعة الخامسة والنصف صباحاً وصل والدي إلى شقتي الكائنة في وسط المدينة، إنها ساعة وصول قطار الريف إلى العاصمة، لم استيقظ بسهولة فاضطر والدي أن يقرع الباب طويلا" قبل أن افتح له وهذا دليل على أنني كنت في بداية نومي إذ أنني كنت أنام عادة في الخامسة والنصف صباحاً، كنت مضطراً لأن أشتغل حتى أسدد أقساطي في جامعة الحقوق، كنت مسؤولاً عن باب الأخبار المتفرقة في عدة صحف مختلفة.

الصعوبة في هذه المهنة هي السهر طيلة الليل حتى صدور الطبعات الأولى حوالي الساعة الخامسة صباحاً، فلا يحق للمخبر الصحفي أن يغفل عن خبر حريق أو حادثة سير أو مأساة ما تحصل عند الفجر مهما كانت صغيرة الأهمية، والأخبار المتفرقة التي تستحق النشر تحدث عادة عند الفجر، وهكذا كنت اسهر على العاصمة جالساً بالقرب من الهاتف لأتلقى الأخبار حال حدوثها وعند الفجر كنت اذهب إلى النوم.

لما فتحت الباب لوالدي كنت سعيداً جداً لرؤيته، ولكن النعاس كان يأخذ مني مأخذه، فغسلت وجهي بالماء البارد لكي أستطيع أن أفتح عينيَّ ثم رجعت إلى والدي أتفحصه بنظراتي، فنظرت إليه كمن ينظر إلى أيقونة وكما نظرت إليه في لقائنا الأول فانقبض قلبي هذه المرة بدلاً من أن أسر وأفرح، لقد كان والدي بثياب قديس فثوبه الوحيد كوجهه الوحيد، فمن حين إلى آخر كانت والدتي تغسله أثناء الليل وترقعه، وأما اليوم وبعد عشرين سنة من الخدمة فلم يعد ثوب والدي يصلح لأي شيء فقد أصبح لا لون له، وعلاوة على ذلك فقد زيدت عليه قطع ورقع مختلفة وعديدة، لقد أحزنني منظر هذا القديس لدرجة أنني خفضت نظري، إنه منظر ثقيل لا يحتمل، يمزق القلب، زد على ذلك أن هذا الكاهن هو أحب شخص إليَّ في العالم كله، إنه والدي القديس الفخور به، فلم يعد باستطاعتي أن أرى وجه والدي الشهيد بثوبه الممزق، ولكن هذه لم تكن إلا بداية أحزاني إذ أني لما خفضت نظري رأيت جزمة والدي التي تثير الحزن أكثر من ثوبه.

كان لا يزال يحتذي نفس الجزمة "**المحدية**" بمسامير غليظة، إنه حصان المسيح، إذن عليه أن يكون مبيطراً كالحصان، إنه يخدم سيده أكثر الأحيان برجليه، لذلك كان يحتاج إلى جزمة غليظة، فالجزمة كانت وسيلة أساسية للقيام برسالته الكهنوتية في الجبال العالية، وأما الآن فقد تلفت هذه الجزمة، تعتروها الثقوب من كل الجهات ومن خلال هذه الثقوب تظهر جوارب من الصوف الخام بلونها الطبيعي –بدون صباغ– وقد حاكتها أمي حياكة غليظة، وهذه الجوارب كانت مثقوبة أيضاً، فتظهر من خلال الثقوب أصابع رجليه

المتورمة من البرد والصقيع والمحمرّة من الروماتيزم والتعب، فمن خلال ثقوب الجزمة والجوارب كانت تظهر أرجل والدي البيضاء كالطبشور، وكأنها ميتة.

أغمضت عينيَّ وشددت أجفاني حتى لا تسيل دموعي فضغطها كما يضغط الإنسان شفتيه لكي يحبس صراخ الألم، يضغطها لكي يحبس دموعه وصراخه في داخله، يضغطها إلى أن تأتي ساعة يتفجر فيها من شدة الكبت، صراخه، ودموعه، وزئيره، وكل آلامه، وعندئذ لم تعد تقتصر على الصراخ والدموع، فالصدر والأضلع وكيان الإنسان كله يتفجر ولكن حتى الآن كان بإمكاني أن أضبط كل ذلك في داخلي وأن أتحمله فكنت أشد أجفاني وأضغط شفتي وأسناني وكان قلبي منقبضاً ومع قلبي الكون كله، فاحمر وجه والدي وبسرعة ستر رجليه تحت الطاولة خجلاً، ارتبك واحمر من الارتباك والخجل لأن ابنه رأى بؤسه، فقال معتذراً:
"بسبب الحرب لم يعد بمقدورنا أن نصنع أحذية ولا أن نصلح أحذيتنا فالجلد مفقود كلياً، وعندنا يحظر دبغ الجلود، وإذا اكتشفوا أن شخصاً دبغ جلداً يرمونه بالرصاص فوراً بدون محاكمة، وبدون استنطاق وبدون أية كلمة، ولم يعد لدينا جلود في المنطقة وبفقدان الجلود لا يمكننا أن نصنع أحذية".

فقلت لوالدي: "لدي حذاء تزلج أهداني إياه أحد المعجبين بقصائدي وهو صاحب متجر كبير هنا في وسط المدينة.. فإني أقدمه لك".

أحضرت الحذاء وقابلت نعله على نعل جزمة والدي المثقوبة والمهترئة، إنهما بنفس القياس، ففرحت لأن يكون قياس رجلي بقياس رجل والدي وشعرت بفخر أيضاً لأنني استطعت أن أساعده.

فقال لي والدي: "**قد تحتاج أنت إلى هذا الحذاء**".

فأجبته: "كلا.. لن أحتاجه فغني لا أكاد أملك الوقت لأنام، فمن أين لي الوقت لأتزلج؟؟.. إنني منهوك دائماً من شدة النعاس".

كان والدي ينظر إلى الحذاء كما يُنظر إلى كنز، هذا الحذاء سيحمي رجليه من البرد والماء والوحل وسيسهل عليه نقل جسد المسيح ودمه المقدسين بسرعة أكبر إلى أبنائه وبناته وبجهد وألم أقل.

قال والدي: "**قل لي.. ألا تحتاج أنت إلى هذا الحذاء؟؟..**".

فقلت له: "لا يُنتعل حذاء التزلج في المدينة، وإني لا أستطيع أن آخذ إجازتي من الآن إلى سنوات عديدة فعليَّ أن أجدَّ في عملي، خذ الحذاء فإنه لك أخبرني لِمَ أتيت إلى العاصمة؟؟..".

بسرعة تحول فرحه بالحذاء الجديد إلى حزن، فتجهم وجهه وزمَّ شفتيه، ففهمته ارتباكه، كان يصعب عليه أن يروي ما حصل له.

خرجت من الغرفة وتركته لبرهة، انحنيت على سخانة القهوة في مطبخي الصغير وهناك بعيداً عن عينيّ والدي لم يعد بإمكاني أن أحبس دموعي، كنت أرثي لحاله وأشفق عليه ولا أستطيع أن أبوح له بذلك كنت أرثي لحاله وحال شعبي إذ أننا أوفر ثروة من كل جيراننا في الضواحي الكبيرة لأوربا الشرقية، نحن أوفر ثروة من البلغاريين واليوغسلافيين والبولنديين والهنغاريين، ثرواتنا طائلة وكلها بين أيدي الانتهازيين والأمراء المستبدين الذين حلوا في بلادي، وتكبشوا في جسمه مثل العلق بمساعدة الغزاة الذين تعاقبوا علينا.. جبالنا تفيض بالذهب ونحن نستجدي من باب إلى باب، أنهارنا تجري على رمال من ذهب ونحن نموت عطشاً وجوعاً، نعد عشرين مليوناً من الشحاذين والعبيد، وحفنة من الانتهازيين تمتص دمنا وتنهش في لحومنا ونحن أفقر من حيوانات الغابات والأمراء الانتهازيون الذين يستأثرون بالسلطة بدعم من الأجنبي ينظمون أنفسهم في عصابات تسمي نفسها أحزاباً سياسية، وفي شرازم تنهش الشعب كالذئاب تماماً فيتغذون من لحومنا ومن دمائنا، وإني على يقين أنه لو اجتاحنا من جديد غزاة الشرق فلن يصيب الانتهازيين أي ضرر، بالعكس إنهم سيزدهرون كما ازدهروا دائماً من كل ويلاتنا، قسم من الانتهازيين يدخل في خدمة المحتل من الشرق كما فعلوا دائماً، وقسم آخر يرحل إلى الولايات المتحدة الأميركية كما كان يرحل إلى القسطنطينية من قبل.

والأميركيون في نيويورك يعلفون جلادينا ويعتنون بهم ويدللونهم ويعالجونهم ليسترجعوا شبابهم، ثم يزوجونهم لكي يتكاثروا ويدربونهم ويرسلونهم من جديد إلى بلادي بعد انتهاء الاحتلال الأجنبي، يطلقونهم علينا كما تُطلق الكلاب المسعورة، فالولايات المتحدة الأميركية هي مشتل الطغاة يأتونها من كل دول العالم ويتجمعون فيها كالأفاعي السامة ثم يطلقونهم على شعوبهم التعيسة، الولايات المتحدة الأميركية هي أحواض علق مخصصة لامتصاص البلدان الأجنبية ومن بينها بلادي.

وكنت أتألم لأنني ما كنت أرى في الأفق أية مساعدة أو أي أمل في إمكانية تحرير، لا من اليمين ولا من اليسار، فقدر شعبي أن يتألم دائماً ولا أمل في مساعدة إلا من فوق، وليس من أية جهة أخرى كما نقول في صلاتنا: "كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة هي من العلو من لدنك يا أبا الأنوار".

لما أحضرت القهوة كان والدي يبتسم، كان قد انتعل حذائي فرحاً إذ أن الحذاء على قياس رجله.
فقلت له: "قل لي.. لماذا أتيت إلى العاصمة؟؟..".

نسي والدي الحذاء فجأة واغتم، ثم قال:
"لقد أوقفت عن ممارسة الأسرار، وسأحاكَم..

فقلت صارخاً: "ألم يعد يحق لك أن تقيم الذبيحة الالهية؟؟..".

بالنسبة لي، هذه هي أكبر مصيبة يمكن أن تحصل تحت الشمس، فكل المصائب الأخرى تهون أمامها وتختفي، لم يعد بإمكاني أن أتصور والدي غير خادم في السماء، فيكفيني شقائي –أنا– إذ أنني حُرمت من الكهنوت، فليس بمقدوري أن أتصوره غير كاهن، وإني أفضل أن أراه مائتاً من أن أراه مبعداً عن المذبح المقدس.

فكررت قائلاً: "ألم يعد يحق لك أن تقيم الذبيحة الالهية؟؟.."

فقال: "يحق لي لأنه لا يوجد كاهن آخر يحلي مكاني، إني أقيم الذبيحة مؤقتاً الآن، ولكن قانونياً أنا موقوف، وقد جُمد معاشي أيضاً، فأنا موقوف إلى وقت غير محدد وسأحاكم، وسيحكم عليَّ نهائياً، فلهذا أتيت إلى العاصمة فيجب أن تساعدني.

- ولكن ماذا فعلت ؟؟..
- أتهمت بانتهاك حرمة المقابر.
- هذا ليس صحيحاً، إنه افتراء، أليس كذلك يا أبي؟؟..
- هذا ليس افتراء يا ولدي، إنها الحقيقة.

- منذ بدء العالم لم نرَ كاهناً ينتهك حرمة المقابر، سمعنا بأن كهنة قد اقترفوا خطايا فظيعة، ولكن ليس انتهاك حرمة المقابر، فهذا غير ممكن..

- بلى، أنا مخطيء، ويجب أن تساعدني وإن كنت مخطئاً يجب أن تأتي معي، فأنت ابني، تعال معي لمقابلة وزير الأوقاف، استعطفه أرجوك لكي يرأف بي.

- لا أستطيع أن أصدقك، فأنا أعرفك لا يمكنك أن تنتهك حرمة المقابر أنا أعرفك، وهذا لا يمكن أن يحصل لأي كاهن آخر، فكم بالحري لك أنت إني لا أصدقك إطلاقاً، فماذا فعلت؟؟..

- لقد انتهكت حرمة مقبرتنا.
- وكيف فعلت ذلك؟؟..

- لقد أخرجت أخاك وأخواتك من المدرسة، فيجب أن ترافقني لمقابلة الوزير لكي يرد لي معاشي، إنه مورد رزقي الوحيد كما تعلم، إنه زهيد مزري ولكن ليس لي مورد آخر غيره فلا يجوز لهم أن يقطعوه، إن ذلك بمثابة الحكم عليَّ بالموت، عليَّ وعلى عائلتي، أمك وأخيك وأخواتك..

كان والدي المسكين فريسة للذعر، ولأول مرة أراه مستسلماً للخوف بسبب الحرمان الكبير والالام الكثيرة التي عاناها ويعانيها كل يوم.

- وكيف انتهكت حرمة المقابر؟؟..

- قلت لك أنني مخطيء ويحق لهم أن يعاقبوني، فبحسب قوانين كنيستنا المقدسة أنا انتهكت حرمة المقابر ولكن لا يجوز أن يقطعوا معاشي بسبب ذلك، كل قصاص جائز إلا قطع المعاش، بإمكانهم أن يقطعوا لي رجلاً أو يداً، ولكن ليس معاشي، فانا لست مسؤولاً عن نفسي فقط على هذه الأرض، أمك المسكينة واخواتك واخوتك يعيشون معي وأنا مسؤول عنهم أيضا" كمسؤوليتي عن الرعية، إني أقر وأعترف بذنبي ولكن لا يعصم إنسان حي عن الخطأ فالله وحده هو معصوم وصالح، فليشفقوا عليَّ وعلى عائلتي، وإن لم يشفقوا عليَّ فليشفقوا على عائلتي على الأقل..

- وكيف حصل ذلك ؟؟..

- كل ذلك بسبب الحرب، هي الحرب التي دفعتني إلى مثل هذه الضلالة، فمنذ أن اندلعت الحرب ونحن نصادف رجالاً تائهين على الطرقات كالكلاب الشاردة، هاربين من السجون أو الجندية، يمشون دون هدى كائنات بشرية تائهة، في بلدتنا لم يمر غرباء أبداً لأنها موحشة وبدون طرقات، والآن نشاهد كل يوم أناساً قادمين من الجهات الأربعة من كل مكان، يمرون في القرية ويعبرون ولا يعرفون إلى أين يتجهون، يجتازون القرية على أخمص أقدامهم وهم يرتجفون خوفاً ويتلفتون إلى كل الجهات وورائهم لألا يكونوا ملاحقين من أحد، وبعضهم رغم خوفهم يطرقون البواب ويطلبون طعاماً وشراباً إنهم ينتمون إلى كل الجنسيات، فمنهم الرومانيون الفارون من الجندية وهؤلاء هم قلائل، فالأكثرية هم القادمون من بعيد، ولا يعرفون كلمة رومانية واحدة، على كل حال إنهم لا يحتاجون إلى كلام في مثل هذه الحالات فحال وضعهم يفسر لنا ما يريدونه، إن كل ما يمكن أن يقولوه كان مكتوباً على وجوههم ومشيتهم وحركاتهم، كلهم جياع وعطاش وخائفون وتعبون يائسون بائسون، ولكن خصوصاً وخصوصاً أنهم لا يعرفون إلى أين يتجهون.

"واحد من هؤلاء البائسين مات من شدة التعب والجوع في وسط بلدتنا فذات صباح عثرنا على جثته على حافة الطريق مجمعاً على ذاته وبارداً، لم يره أحد يدخل البلدة، والكلاب لم تنبح عليه فلو فعلت ذلك لاستيقظ الناس على أصواتهم وانقذوه وقدموا له كل ما يحتاج وكل وسائل الراحة كما تعلم، ولكن هذا الشاب لم يسمعه احد وهو يدخل القرية، كانه سقط علينا من السماء ومات وحده ممدداً بين الأعشاب على حافة الطريق، حمل الناس جثته إلى بيتنا إلى بهو الدار إلى المقبرة، كان عمل الناس عفوياً ومن منطلق الشفقة والرحمة والانسانية، حيث أن الأموات ينقلون إلى الكنيسة كما هي العادة، وقد شرحت ذلك للسلطات الرسمية، ولا يوجد في قريتنا مركزاً للشرطة ولا مخفراً للدرك ولا مركزاً لعرض الجثث ولا مستشفى حتى إنك تعرف ذلك تماماً، إذن لا يبقَ أمام الحاملين إلا المقبرة لإيواء الجثة ودفنها فدفن الميت ستر له.

بعد أن وضعوا الجثة في المقبرة بكل تهيب جاء من يدعوني، وهذا أيضاً عمل عفوي وقد شرحت ذلك للمحققين عندما يموت إنسان فإنهم يدعون أبا الناس، الكاهن.

حصل ذلك في الصباح الباكر، ووجدت الميت ممدداً على العشب بقرب قبة الجرس على مدخل المقبرة هناك كان قد وضعوا جثته، فلم يكن باستطاعتهم أن يُدخلوه الكنيسة لأنها كانت مغلقة، كان الشاب نضراً من سكان المدينة، وهو يرتدي بنطالاً وقميصاً فقط، بشرته بيضاء ولحيته حريرية صهباء ووجهه نحيل عظمي شاحب متشنج، يُقرأ على وجهه بوضوح أنه كان خائفاً من الموت كثيراً وانه قد صارع الموت صراعاً يائساً ويُقرأ عليه أيضاً أنه كان مريضاً، وقد استنتجنا أنه كان هارباً من إحدى المستشفايات، وقد يكون سجيناً فاراً فوجوه المساجين والمرضى متشابهة فهم يحملون نفس الشكل، هذا ما أوحيَ غلينا من منظره، لقد أشفقت عليه وكذلك جميع الحضور فقد شعرنا أننا مذنبون إلى حد ما بحقه فقد قضى هذا الشاب المجهول والمعذب وقتاً ما في بلدتنا ولم نشعر به لانقاذه أو نحضّره للموت على الأقل فموته يعنينا كلنا، ولذلك كنا نشعر بالذنب تجاهه.

وحتى لا تدنس الكلاب والقطط والذئاب الجثة وتمزقها فقد نقلناه إلى الكنيسة وهذا أول عمل قمنا به على الأقل، ثم أوفدت خيالاً إلى الدرك في البلدة الجاورة ليخبرهم، وبانتظارهم أشعلت شمعتين فوق رأس الميت ومددناه على المحمل في وسط الكنيسة، ووضعت البطرشيل وتلوت عليه الصلاة الخاصة بالأموات.

وبعد الظهر وصل رجال الدرك فنزعوا عنه ثيابه وتفحصوا جثته كلها ليروا إذا كان قد قتل قتلاً، ثم رحلوا قائلين إنها ليست بجريمة فالوفاة طبيعية وأنهم سيرفعون تقريرهم بذلك.

فسألناهم: "والميت ماذا تفعلون به؟؟.."

فقالوا لنا: "بإمكانكم أن تدفنوه فنحن لا نرى مانعاً من ذلك، إنه ميت مجهول ولا يحمل شيئاً يدل عليه، ادفنوه.

فسالناهم: "أتظنون أنه مسيحي؟؟.."

فاجابوا: "**بما انه ميت فما الذي يهمكم سواء أكان مسيحياً أم وثنياً، وضحكوا وذهبوا**".

فقلنا لهم: "لنعرف على الأقل أين ندفنه".

فقالوا لنا: "إنكم تعقدون الأمور، افتحوا حفرة داخل المقابر وارموه فيها، وإذا كان قلبكم يأمركم بالصلاة فصلوا لأجله، فالصلاة لا تضره حتى وإن كان غير مسيحي، إنه من المستحسن أن يصلي أحد لأجلكم أنتم والآن وداعاً".

بعد رحيل رجال الدرك، غسلنا جثة الميت وحلقنا ذقنه وقصصنا شعره، وألبسناه قميصاً أبيضاً نظيفاً كما تقضي التقاليد، ثم دفناه".

سألت والدي: "هل دفنتموه دفنة كنسية؟؟.." لأنني كنت أعرف أن الكنيسة تخصص رتب الدفن لمؤمنيها المعمدين، والذين اقتبلوا الأسرار.

أجاب والدي: "نعم.. لقد دفناه بكامل التكريم الذي تمنحه الكنيسة للموتى المسيحيين".

فقلت له: "لقد أخطأت يا والدي، وخالفت النظمة والقوانين الكنسية المقدسة ".
فقال والدي: "أنا أعرف ذلك، ولكني استرسلت وأنا اتلو صلاة الموتى، فانا تعرف صلاة الموتى التي تقول: "أنا من تراب ومن رماد". نظرت إلى القبر ورأيت العظام المبيضة فتساءلت: "أيهم عظام الجندي وأيهم عظام القائد، ايهم عظام الصالح، وايهم عظام الخاطيء، إنها كلها متشابهة".

لم أكن موافقاً على كلام والدي، **فخليقة الانسان الجديدة، الانسان المسيحي هي خليقة اليوم الثامن، هي قيامة المسيح، إذن هي المعمودية**، ولكني لم أشأ أن أرهق والدي، فسالته: وبعد ذلك؟؟..

- وبعد ذلك وبما أننا كنا نجهل كل شيء عنه صلينا إلى الله لكي يغفر له خطاياه ويقبله في النعيم مع القديسين.

- أهذا كل شيء؟؟..

- هذا ليس كل شيء، بما اننا نجهل اسمه سميناه "**المعروف من الله**" من الله وحده ودفناه حسب المراسم الجنائزية، وركزنا على قبره صليباً من خشب لائقاً وكتبنا على الصليب: "**هنا يرقد المتوفي في قريتنا المعروف من الله**".
ما فعله والدي لم يكن قانونياً إطلاقاً، ولكن قلب الانسان لم يتعلم القراءة قط، فالقلب دائماً أمي.

وقال والدي: "لقد تأثرت بالغ التاثير أثناء رتبة الدفن كما لو كان ابني باللحم والدم فبكيت عليه لأنه كان وحيداً مغفلاً متروكاً بيننا، وكل ابناء القرية حضروا الدفن وبكوا عليه كما لو كان ابناً لكل واحد منهم".

فقلت لوالدي: "ولهذا فأنت تستحق تأنيباً شديد اللهجة صارماً، ومن ثم يُطوى الموضوع ولا يُحكى فيه ثانية".

فقال والدي: "لم تنته القصة هنا، فبعد شهر رجع الدرك إلى الدار يصحبهم أناس من المدينة وبيدهم أمر بإخراج الجثة من القبر، وهكذا فعلوا ونزعوا ثيابه وتفحصوه، وكان لحمه قد بدأ يتفسخ ولكنهم قالوا بدون أي تردد أنه ابنهم، ثم طلبوا أن يُحفظ في الكنيسة وألا يُرد إلى القبر لأنهم سيرجعون في اليوم التالي ليأخذوه وذهبوا قائلين:

"سندفنه في مقبرة المدينة بمقتضى ديانتنا اليهودية".

"ولم يعد الميت "**المعروف من الله**" لأن أناساً أقرباءه قد تعرفوا عليه، ولا يزال قبره فارغاً، كلنا تاسفنا عليه لأننا كنا نحبه فقد تبنيناه كلنا، وقبره الذي كنا قد غرسنا عليه كرزة وورودا كان يحظى بعناية فائقة منا لأن كل فرد منا كان يشعر بواجب الاعتناء بقبر لا يلتزم به أحد، والان نحن نفتقده فقبره الفارغ يؤلمنا..

ورجع والدي إلى قصته: "أثناء ذلك وصلت وشاية إلى وزير الأوقاف وإلى البطريركية يطلب صاحبها أن أحاكم وأعاقب بتهمة انتهاك حرمة المقابر، بحجة أنني دفنت فيها وثنياً ويطلب أيضاً أن أحرم لأنني مارست رتبة الدفن الكنسية على شخص غير مسيحي، فوصل موظف من دائرة المحافظة يحقق في الحادث فرأى أنني خالفت القوانين وأن الوشاية ترتكز على براهين فقطعوا معاشي، ولكن سمحوا لي بممارسة الأسرار مؤقتاً فلا يظل الناس بدون كاهن، لأنهم لا يجدون مَن يحل مكاني، وحالما يجدون كاهناً غيري أُحرم أنا من الدخول إلى الكنيسة.

رأيت أن والدي قد انهار من جديد .

"أرجوك يا ولدي ان تاتي معي إلى الوزارة، فيجب ان نقابل الوزير وأن نطلب منه العفو لأننا بدون المعاش سنصل إلى حالة اليأس، وأقولها لك بدون مبالغة أننا سنموت جوعاً.

رافقت والدي إلى الوزارة فكان يمشي بجانبي بحذاء التزلج الذي اعطيته إياه، ومن عادته أنه يتعشق السير على الاسفلت لأنه قضى حياته على طرقات الجبال الصخرية، وفي سيره على الاسفلت كان يشعر بأنه يمشي حافي القدمين على بساط من مخمل، وكانت الأرصفة تستهويه وكان يعلن فرحته بالسير على الاسفلت لأن الانسان لا يحتاج لأن ينظر أين يضع قدمه، بينما في الجبال يتعرض الانسان في كل خطوة لأن يكسر رجله، فكل خطوة تعرضه إلى السقوط في هوة، ولكن حاليا" ليس السير على الاسفلت بهجة، لقد كان مشغول البال متألماً بسبب الحرم وقطع المعاش والدعوى التي ستتبع ذلك.

امين سر الوزارة هو احد اصدقائي، اعرفه لأنه كان صحفياً ايضاً، انه رجل مسن ولطيف جداً، لقد استقبلنا استقبالاً حسناً على مقاعد جلدية في مكتبه الخاص الوسيع، وفتش على ملف والدي بين ملفات انتهاك حرمة المقابر وفتحه فتجهم وجهه، ثم أصغى إلى والدي بانتباه ولطف وتفهم.

فقلت له: "هذا اتهام فقط، لا يجوز أن نعمل من الحبة قبة، أنا أقر بأنها مخالفة كبيرة ضد القوانين والأنظمة الكنسية، ولكن لا يصح أن يُحكى عن انتهاك لحرمة المقابر ولا يجوز أن يُحرم والدي وأن يُعرّض للموت جوعاً بدون أي مورد عيش بسبب وشاية سخيفة.

فقال الموظف: "إنها ليست وشاية سخيفة بل إنها أخطر مما تتصور، إنهم يدعون –من وجهتين– أن الكاهن كان يعرف تماماً أن الميت المجهول هو يهودي، إذ أنهم قد خلعوا ثيابه وغسلوه عرياناً ويؤكدون أن والدك قد رأى أن الميت **مختون**.

فقلت له: "عندنا لا يعرّون الميت كلياً بدافع الحياء والحشمة، فلا يحصل عندنا كما هو في غرفة عرض الموتى او المستشفايات، إنه غسل ديني تقوي محشوم.

فقال لنا: "لقد كتب هنا ان الميت قد عُريَ كلياً، ويستنتج منطقياً أنهم رأوه مختوناً، إذن يهودي وبما أن الميت يهودي فقد أكرهوه على أن يُدفن دفنة مسيحية، وبالمفهوم الديني لقد خرقوا حرمته لما فرضوا عليه

بعد الموت ديانة غير ديانته، وعائلة الميت هي التي تدافع عن ذلك، ومن ناحية أخرى أن الكنيسة تتهم الكاهن بأنه قد ضرب بعرض الحائط الحق القانوني لما دفن يهودياً حسب المراسيم الخاصة بالمسيحيين، فمن الناحيتين يندون بانتهاك الحرمات، والغبن يلحق بالفأتين، والفأتان تطالبان بإنزال العقوبة بوالدك بحزم وعنف فعلمه خطير، لقد أشعل فتنة دينية في باتروفيا.

شحب وجه والدي وكذلك وجهي لهذه الأقوال.

أمام الكنيسة أنت متهم بانتهاك حرمة المقابر، وأمام عائلة الميت أنت متهم بتدنيس الجثة، فأنت في وضع سيء وسيء جداً، فلو عرفت الصحافة بذلك لنشأت قضية كبيرة تتداولها الصحافة تعتبرها مادة دسمة لها لأن كل واحد منهم يتخذ موقفاً مؤيداً أو معارضاً كما في اسطورة الملك ميداس الذي كان يحول إلى ذهب كل شيء يلمسه، واليوم كل واحد يسيِّس كل ما يُعمل.. وأنت قد دنست يهودياً ميتاً عندما لمسته وباركته بصفتك كاهناً مسيحياً، وهذا يعد سبباً كافياً لإثارة فتنة كبيرة واغتيالات ومجازر.. إذ أن الجو في أيامنا هذه مشحون بالكبريت كالجحيم، والبغض والجنون والأهواء مطلقة العنان في كل مكان فتهدم كل شيء مثل ألسنة الحريق وأوروبا اليوم كلها مشتعلة، وإني أشفق على ابنك الذي كُتب عليه أن يبدأ حياته في جو مسموم، أنت قمت بعمل غير معقول ورائع جدا" في نفس الوقت، فحولوه إلى جريمة فظيعة ومزدوجة، اذهب بسلام فغنني سأسوي قضيتك وارد لك معاشك.

نهضنا من مقاعدنا، فانحنى الموظف الكبير أمام والدي إنحناءة عميقة وقبّل يده قائلاً:
أنت كاهن قديس.. وإنسان قديس ياأبتي".

احمر وجه والدي خجلاً كأنه تلميذ في الصفوف الثانوية ولم يحسن الجواب عليه من شدة التأثر.

خرجنا من الوزارة فرحين بتسوية القضية، ولكن مسحة من الحزن كانت تخيم على نفوسنا، أدركنا أننا نعيش في جو مسموم فاسد جهنمي، لأنه يجب أن يكون الشيطان شريكاً للانسان لكي يعتبر عمل والدي – هذا العمل الرؤوف الطاهر النقي والذي يليق بالقديسين– إعلان حرب بين اليهود والمسيحيين، أو إهانة للكنيسة والهيكل، للمسيح ولموسى..

هذا كثير، وقد قيّض لي أن أختبر بنفسي فيما بعد السموم الجهنمية التي تشيع في جو عصرنا، خبرت ذلك لأنني كتبت عمن دنس كنيسة معهدي في مدينة كيسيناف -حيث صليت أثناء حداثتي– لقد أحرقوني بنار بطيئة ولا يزالون.. وبفرح كبير وفي العالم الغربي كله.

فقلت لوالدي: "يجب أن يرتكب الانسان هفوة لكي يعرف القلوب البريئة، لأن انقياء القلوب يزيدون نقاوة إذا ما ارتكبوا هفوة مثلك أنت يا والدي، والحقيرون والأخساء يزيدون خساسة حتى وإن ظلوا ضمن الشرعية والقوانين.

بعد ذلك دعوت والدي إلى مطعم فرفض، لم يكن باستطاعته أت يتناول الطعام معي لأنه يود أن يستقل قطار الثانية عشر ظهراً ليعود إلى كنيسته ورعيته وبيته وفقره.

ونحن ننتظر القطار في محطة الشمال، كنت سعيداً جداً لأن أجد نفسي من جديد بالقرب من والدي ولكني كنت أتألم لأنه لم يكن بمقدوري أن أشتري له ثوباً آخر غير ثوبه البالي، ولا أن أصلح له اسنانه، ولا أن أقدم له بعض القمصان..

صعد والدي إلى المقطورة في الدرجة الثالثة، مقاعدها من الخشب الأبيض وأطل عليَّ من الشباك فكان مبرزاً مثل أيقونة جميلة.

وبينما كان القطار يتحرك للإنطلاق قبلت يده وقلت له:
"باركني يا أبي".

فقال: **"ليباركك الله يا بني من وجهتين"** (بالروح والجسد).

وانطلق القطار حاملاً في مقطورته **أيقونة والدي القديس**، وبينما هو يباركني كان كم ثوبه الفضفاض والمهترىء يخفق في الهواء كأجنحة حمامة السلام..

وكانت هذه آخر مرة أرى فيها والدي على ذلك الشباك.

هل صعد والدي إلى السماء بجسده؟؟..

بعد رحيل والدي ببضعة أيام اتصل بي أحد أصدقائي هاتفياً وكان عائداً من الجبهة بإجازة، فسألني فجأة وبدون أية مقدمات وهو يستفسرني عن والدي:

- ما اسم والدك ؟؟..
- قسطنطين .

فقال: "والدك أعدم بالرصاص، وقد عرفت ذلك صدفة وسأطلعك على الحادث لأنك قد لا تعرف به بسبب الرقابة، ويجب عليك أن تعرفه".

فسالته: "مَنْ اغتال والدي؟؟.."

- والدك لم يُقتل اغتيالاً وإنما أُعدم في محطة **باسكاني** منذ ثلاثة أيام، كان ينتعل حذاء جندي، وهو ينزل من القطار في **بوخاريست** كانت الأوامر صارمة، وأول ضابط في الدرك صادفه أمر بإعدامه.

فقلت: "لم يكن والدي ينتعل حذاء جندي وإنما حذاء تزلج".
لم أعد أذكر ما قلت فيما بعد، كنت أعرف أنني أنا الذي قتلت والدي حين أهديته الحذاء اللعين، فقدت صوابي من شدة الحزن وبدون أن أدري أين أذهب وماذا اعمل قرعت كل الأبواب أطلب العدالة، وانتحبت كثيراً وكأن العالم قد انتهى واندثر ورجع كل شيء الى الظلمة، وعندئذ أشفق الله عليَّ وعلى ألمي الكبير فأتاني معجزة.

صحيح أن والدك قد أوقف وأعدم بسبب زوج أحذية، ولكنه لا يزال حياً.
كانت تلك اعجوبة، أني أعرف ذلك وهكذا حصل الحادث.

وهو عائد من العاصمة توقف والدي في محطة القطار **باسكاني** قبل مطلع الفجر، والدي الذي كان قد سافر طيلة الليل على مقعد خشبي في القطار نزل في المحطة سعيداً مسروراً باستقبال هواء **مولدافيا** الناعم وهناك اربعون كيلومتراً تفصل المحطة عن البيت فاراد ان يقطعها سيراً على الأقدام كما هو معتاد وخاصة أنه الآن ينتعل حذاءً جيداً فبه يريد أن يتحدى الطبيعة، فراح يمشي وهو مزهواً، ففي الوزارة قد وعدوه بأنه سيستلم معاشه وقضيته سيسوى موضوعها فسفره قد أعطى ثمرة جيدة أعادت لـه الحيوية والنشاط فكل الأسباب كانت تدعوه لأن يكون سعيداً فرحاً كالطفل الناجح في صفه أو كالطفل الحائز على لعبة جميلة، وكل خطوة كانت تدنيه من كنيسته ورعيته وقريته، فكان يمشي بشجاعة وثبات.

ما أن خرج من مدينة **باسكاني** حتى أوقفه حاجز للشرطة العسكرية، ضابط مناوب مضمخ بالطيوب، يحمل في يده سوطاً وهو -ابن أحد الوصوليين أمير "**فناري**" مثل كل الضباط الشباب الذين في خدمة الأركان– كان يأمر زمرة من الجنود بتفتيش الفلاحين، وقد كنا قد ألفنا مثل هذه المشاهد في كل مكان نصادف فيه جنوداً على الطرقات، فهم يفتشون الفلاحين الرومانيين المساكين خوفاً من أن يحملوا في أكياسهم قليلاً من القمح أو الخبز أو الجلد أو الصوف أو الذرة أو الفاصولياء، فكل شيء كان مقنناً وكل شيء كان محرماً على الفلاحين وهؤلاء الوصوليون المضمخون بالطيوب قد أعدموا الوفاً من المواطنين بسبب قميص أو كسرة خبز أو علبة كبريت أو دولاب شاحنة مستعمل، لقد أُعدموا على جوانب الطرقات مثل الكلاب السائبة على يد الوصوليين الذين يرتدون البزة العسكرية.

لما وصل والدي كان صف الذين ينتظرون طويلاً فوقف في الصف ينتظر دوره، فلاحون كثر كانوا ينتظرون أمامه وخلفه كلهم جائعون مثله مهانون مثله وخائفون مثله، وكلهم ينتظرون أن يُعرّوا من ثيابهم

ويُفتشوا ويُجلدوا، والكاهن أب هؤلاء التعساء كان معهم في تلك الساعة يشاركهم نفس المصير، فلذلك كان رابط الجأش، كلهم كانوا يعرفون ووالدي يعرف أيضاً أي مصير كان ينتظرهم، بعضهم سيُعدم، وبعضهم سيُسجن، وسعداء الحظ بينهم –مَنْ لا تثبت عليهم جريمة ما– فهؤلاء سيضربون بالسوط على وجوههم ويرفسون على مؤخراتهم ثم يصرفون إلى بيوتهم، وتعلن براءتهم مؤقتاً حتى الحاجز الثاني، وجوههم مقرَّحة من السياط والرفس علىمؤخراتهم وكثرة اللكمات.

ولما جاء دور والدي لكي يُفتَش علا صوت الضابط ساخطاً حاقداً، وقال: "العدو على بضعة كيلومترات من هنا، وأرضنا المقدسة مهددة، وأنت كاهن تسرق حذاء الجنود الذين يضحون بحياتهم في سبيلك.. إنك ستُعدم هنا كالكلب، وستُعلق جثتك في عمود التلغراف لتخويف الآخرين ولتكون عبرة لكل الفلاحين اللصوص".

فقال له والدي: "إن ابني الشاعر هو الذي أعطاني إياه، وهذا ليس حذاء جندي إنما هو حذاء تزلج وبإمكانك أن تتأكد منه".

كلام والدي كان بدون فائدة، فلم يُصغ إليه أحد وذهب كلامه سدىً، فقد كان الضابط هائجاً كالثور عازماً على قتل والدي بأية وسيلة كانت، إن قتل الكاهن يكون عبرة للآخرين، وقد أراد الضابط أن يكون للإعدام وقع كبير، فربطوا يديه وراء ظهره بحبل تُربط به الحيوانات وعصبوا عينيه وأوقفوا ستة جنود أمامه وتم كل شيء بسرعة فائقة وانضباط كلي، إذ أنهم قد اعتادوا مثل هذه العمليات فإنها تحصل كل يوم وعدة مرات في النهار الواحد، تحصل على كل المفارق والساحات وفي كل مكان، فكل مهامهم كانت التفتيش والضرب والإعدام.

ولكن الاعجوبة لم تتأخر لتظهر لأن والدي كان خادم الله، وخدام الله هم أصدقاؤه فلا يستطيع الله أن يتحمل مثل هذا الظلم، أعطى الضابط أمراً بإطلاق النار ولكن جندياً واحداً من الستة لم يشد على الزناد فكرر الضابط أمره ولكن بدون جدوى، وقف الجنود بلا حراك وبنادقهم على أكتافهم ولكنهم رفضوا أن يطلقوا النار، كأنهم قد تسمروا في أماكنهم، فكان الضابط يرغي ويزبد غاضباً مسعوراً، ثم شهر مسدسه وهدد الفلاحين والجنود بالقتل، لما سمع الفلاحون ذلك ركعوا على الأرض وصلوا صامتين، ثم رفعوا أصواتهم في جوقة واحدة، وبقي الجند مسمرين في أماكنهم دون حراك.

فقال العريف وهو ينظر إلى مسدس الضابط المسدد إليه:
"بإمكانك أن تقتلنا كلنا فنحن لا نقتل أبانا، لا نقتل الكاهن أبداً فنحن مسيحيون وإعدام الكاهن هو بمثابة إعدام الله".

الجنود والفلاحون أخبروا كل هذه الأشياء وكتبوها ووقعوها كل بمفرده.

وبعد أن أعلن الجنود للضابط رفضهم بإطلاق النار وضعوا بنادقهم على الأرض وركعوا هم أيضاً مثل الفلاحين وصلوا معهم بصوت واحد، ووالدي صلى أيضاً ومنحهم الحلة من كل خطاياهم، وانتظروا الموت.

اعترى الضابط خوف شديد فأمر بحل وثاق والدي وأمر الفلاحين بالذهاب إلى بيوتهم، فأُخلي سبيل الجميع.

والضابط أيضاً رحل في شاحنة مع جنوده بدون أن يقول شيئاً.

في المساء، قص الجنود خبر الحادثة في الثكنة، فأُجري تحقيق في الأمر وادلوا بإفاداتهم ووقعوها فنُظم محضر بالحادثة، وبما أن الضابط هو من الوصوليين فقد طويت القضية، إلا أن الخبر كان قد نتشر الصحف في كل مكان فقرأه الناس واطلعوا عليه، والمهم –بالنسبة لي– هو أن الله بكبير عطفه أنقذ من الموت خادمه الكاهن **قسطنطين جورجيو** ولم يسمح للوصوليين أن يعدموه على حافة الطرقات كما يقتلون الكلاب المسعورة.

قبل أي شيء آخر ذهبت إلى الكنيسة أشكر الله لأنه أنقذ حياة والدي، ولأنه اجترح اعجوبة كبيرة مع كاهن قرية صغيرة اتهم بانتهاك حرمة المقابر وبالهرطقة ظلماً، ولكن الله يعرف أن والدي كان مدفوعاً في عمله هذا بحب القريب، والقانون الأساسي يجيز للانسان أن يعمل كل شيء إذا كان قلبه يعمر بالمحبة، كما يقول بعضهم: **"أحبب وافعل ما تشاء"**.

بعد بضعة أيام خامرني شك بصحة الاعجوبة، وخفت أن يكون والدي قد قتل، وأن يكونو قد أخبروني الأشياء بهذه الطريقة ليهونوا عليَّ الأمر ويطمئنوني، فقررت أن أذهب وأتحقق بنفسي من الأمر لأن البريد والهاتف معطلان منذ زمن بين العاصمة ومنطقة **مولدافيا** التي تقع في أقصى شمال البلاد، ولا سبيل إلى التثبت إلا بالذهاب والتحقق من الأمر.

طلبت تصريحاً بالسفر فلم أحصل عليه بدون عناء كبير، فذهبت إلى المحطة لأشتري بطاقة السفر فقال لي الموظف:

"لا يوجد قطارات إلى شمالي مولدافيا، فلا سفر إلا بالقطارات العسكرية لأنها قد أعلنت منطقة عسكرية بسبب المعارك الدائرة هناك".

قمت باتصالات كثيرة ومضنية حيث كنت شاعراً معروفاً، وبفضل ذلك حصلت على تسهيلات، وأخيراً سمحوا لي أن أسافر في قطار عسكري، وذات يوم قبل رحيلي إلى **باترودافيا** قيل لي في مركز الأركان:

"إذا كنت تذهب لرؤية والدك وأهلك فلا فائدة من ذهابك، لأن جميع مدن باترودافيا قد أخليت من السكان وتحولت المنطقة إلى جبهة قتال، ومن الممكن أن تكون قد دخلتها مصفحات العدو".

- إلى أين رحلوا ؟؟..

- لقد حصلت عملية الإخلاء بسرعة فلا نعرف إلا شيئاً واحداً وهو أن الجيش قد أخلى السكان جلاءً تاماً وبتنظيم دقيق، وقد نجحت العملية ولكننا لا نعرف بعد إلى أين قد نقل السكان، فيجب أن ننتظر فحتماً سيكتب لك والدك حالما يستقر في مكان ما.

كان ذلك صحيحاً، لقد أجلى الجيش رعية والدي بكاملها، وجُمع المؤمنون كلهم في قافلة واحدة مع امتعتهم الزرية ومواشيهم وبطانياتهم ومقتنياتهم الضحلة ونُقلوا نحو الجنوب، ولكن لا يعرف أحد أين توقفوا لأن تقدم جيوش العدو كان وحشياً فلم يكن بالامكان تحديد المنطقة التي سيستقر فيها السكان الهاربون من منطقة المعارك.

- من الممكن أنهم لا يزالون في الطريق، وحال وصولهم إلى مكان ما تصلك أخبارهم.

شيء واحد أكيد: هو أن الله قد أنقذ حياة والدي باعجوبة ووصل إلى قريته سالماً وحافي القدمين، وبعد وقت قصير أخلى الجيش المنطقة من المدنيين ورحل في القافلة سيراً على الأقدام مع أبناء رعيته نحو جهة مجهولة.

عشرون سنة مرت على هذا الرحيل، ولم يبلغ أحد عن مكان وجود اولئك اللاجئين لا سائرين ولا متمركزين ولا مقتولين، فإنه لم يراهم أحد قط.

مكان وجودهم هو: "معروف من الله وحده".

فمن الممكن أنهم ماتوا منذ زمن طويل، أو أنهم أحياء في مكان مجهول، ومن الممكن أنهم ما زالوا سائرين في قافلة على الطرقات من مكان إلى مكان، ولكن إلى أين لا أعلم...

بعد اختفاء والدي وأبناء رعيته بقليل دخل المحتلون إلى وطني الحبيب قادمين من الشرق بدبابات أميركية، فخلال القرنين الأخيرين لم يتحرر شعب بلادي من الاحتلال الاجنبي إلا بضع عشرات من السنين، ألفا سنة من الاحتلال الاجنبي وستون سنة من الحرية النسبية، هذا هو تاريخ شعبي، لقد كنت قلقاً، كنت أخاف أن يكون العدو –المحتل الأخير– قد أدرك القافلة المؤلفة من والدي وأبناء رعيته، فإذا كان قد أدركهم في الطريق فمن المؤكد أنه قد ذبحهم، وإذا كان المحتل قد أدركهم متمركزين في مكان ما فالحظ كبير بأنهم

لا يزالون على قيد الحياة، فالمحتلون الجدد عندما يصلون إلى منطقة ما يعتقلون الكهنة أولاً، ثم يصادرون الكنائس ويحولونها إلى مراكز عسكرية، وهكذا تصبح الأماكن المقدسة حانات للجنود او مستودعات للحبوب او مرائب للسيارات او مبان إدارية، وهم لا يقتلون الكهنة فوراً بل يربطون أيديهم بسلاسل ويطوفون بهم في المدن والقرى، ولكي يحقروهم يجبرونهم على تكنيس الشوارع وتفريغ المجارير القذرة وتنظيف المراحيض ويوجهون إليهم تهماً قذرة، وزيادة في إذلالهم وتحقيرهم يحاكمونهم علناً.

لمراقبة هذه القصاصات يستخدم المحتل اناساً غير مسيحيين، حتى لا يشفقوا على من ليس من دينتهم.

واثناء المحاكمة المدبرة ضد الكهنة ينظمون اجتماعات ضد الدين، والوثنيون هم الذين ينظمون هذه الاجتماعات ويحمسون الجماهير على رجم الكهنة، فالكهنة الذين ينجون من هذه المحن –المعترفون– يرسلون الى سجون الاشغال الشاقة او يُقتلون بكل بساطة.

وبما أن أعز شيء على قلبي في العالم –الأشياء الوحيدة العزيزة عليَّ– هو الكنائس وأيقونة والدي، فإنه من الطبيعي أن أقلق على مصير والدي ولكن رغم كل الجهود وكل المحاولات لم أتوصل خلال عشرين سنة إلى العثور على أي أثر لوالدي أو لأبناء رعيته، لم يستطع أحد من الناجين ومن الشهود ومن الهاربين الذين سألتهم خلال عشرين سنة أن يعطيني أية معلومات عنهم، فأحياناً أتيقن أن والدي ورعيته هم موضوع اعجوبة، فإذا كانوا قد عُذبوا وقُتلوا فلا بد ان يكون قد رآهم احد وسمع صراخهم، لا بد ان تكون قد ظهرت آثار دمائهم او جثثهم في مكان ما، غير ان احداً لم ير لهم أثراً، لذلك اعتقد جدياً بأن والدي وابناء رعيته قد انتقلوا مباشرة من الارض الى السماء، فتسارع الاحداث وكبر الخطر عليهم لم يمكناهم من خلع اجسادهم وترك قمصانهم الجلدية هنا على الارض، كما يحصل بصورة طبيعية، فالخطر كان كبيراً والوقت قصيراً حتى ان والدي وابناء رعيته لم يتمكنوا من خلع اجسادهم المادية واستيداعها في المقابرحتى يوم القيامة فانتقلوا بسرعة الى السماء بأجسادهم المادية كما كانوا يعيشون على الارض، فكانوا كالمسافرين الذين يصلون الى المحطة في الدقيقة الاخيرة لحظة يتحرك القطار للانطلاق، فلا يعود بإمكانهم ان يتموا المعاملات اللازمة، والله مثل رئيس محطة طيب متفهم عندما رأى والدي ورعيته مضنوكين يلهثون خوفاً من أن يفوتهم القطار فتح لهم أبواب السماء وسيعة قائلاً لهم:

"اصعدوا الى السماء باجسادكم، لم يعد لديكم متسع من الوقت لأن تخلعوا قمصانكم الجلدية في المقابر، اسرعوا.. انطلقوا.. فقمصانكم الجلدية خفيفة، وقميص الأب جورجيو شفاف كالزجاج، اصعد الى السماء أيها الأب بمعطفك الجلدي الخفيف".